

الطبعة
10



محمد صادق

هيتا

رواية



الرواق للنشر والتوزيع

استهلال!

كماداته، مبطت فطرات العرق على جبينه العريض، وهو يدخل من ذلك الباب الواسع في قاعة المحاضرات الواسعة.. لم ينظر لأحد على الإطلاق، حتى وقف خلف ذلك المكتب الصغير، ووضع بعض الأوراق والكتب عليها بسرعة، لتتأثر بعض الأوراق على الأرض، فتتعلق ضحكات خافتة في المكان. نظر للورق الملقى عليها لحظات طالت.. ثم تجاهل الورق تماماً، وهو يرفع عينيه للطلاب، لأول مرة منذ أن دخل القاعة..

تنحى لحظات، ثم قال بعد فترة صمت:

- المحاضرة دي ممكن نأخذها بأسلوبين... أسلوب علمي بحث... مصطلحات علمية وقواعد وقوانين والدخول في علم النفس العميق...

وأكمل ملتفتاً لهم في هدوء:

- أو شرح بسيط قوي... ملناش علاقة بالعلم إطلاقاً... أسلوب في الشرح مبسط جداً... كأنكم بتتكلموا مع واحد صاحبكم مثلاً... ونهتم أكثر بالمشاعر والاحاسيس واساليب تناولها... أيه رأيكم؟...

نظروا لبعضهم في حيرة... دائماً ما يرتبكون أمام الاختيار... لم يعتادوا أن يسأل المعلم طلابه أن يختاروا شيئاً...

قال:

- الاقتراح الأول يرفع أيده...

ارفع أيد قليلة في تردد، فقال مبتسما كي يريحهم من عين المسئولية:

- اعتقد أننا كده هاناخذ الاقتراح الثاني...

وساد صمت تام للحظات طالت.. قطعه هو بنحنة قصيرة، ورفع عينيه ثانية لكل الباقي في القاعة، وقال بصوته العميق:

- أنا (أسامة حافظ)..

بدأت العيون تنظر له بانتباه، فابتسم هو في بساطة وقال:

- أنا أخصائي علاقات زوجية وأسرية، ماجستير في دراسة النفس

البشرية وسلوكياتها في إيجاد شريك الحياة، يعني الحب..

وأكمل وهو يعدل كرافته:

- طبعا معظم الحضور من الأنسات أو المدامات.. ورجالة قليلة.. لأن

المحاضرة ديه أولا: خمس أو ست ساعات، على حسب سعة صدركم. ثانيا:

محاضرة معمولية في موضوع مايمش رجالة كثير، لأن الرجالة كلهم - طبعا

- مقطعين السمكة وديلها ومش محتاجين واحد زيي يبجي يقول لهم أو

يكلهم عن الحب.. أو بتعبير علمي أكثر: «التطورات النفسية المصاحبة

لإيجاد معنى لشريك الحياة»...

وأشار لهم اشارة عامة وهو يكمل:

- في المحاضرة ديه بالذات، كل القواعد اللي متعودين عليها برة مالنش

دعوة بيها.. يعني أنا مايمش أنت بتشتغل فين، ولا أحلامك ايه، ولا

سنتك ايه.. عشان تعرف نفسك هنا، تقول اسمك وحالتك العاطفية وبس.

ثم نظر للحضور نظرة عامة، وقد أثار فضولهم... لكنه شرد للحظات،
ثم قال كأنها لم يقل شيئاً على الإطلاق:

- كلنا بلا استثناء نلّف في الدواير.. والدنيا تلف بينا!.. كل الناس
والنباتات والحيوانات يلفوا في دواير، لأن الدائرة هي الأسلوب العبقري
في ضمان الاستمرارية وعدم التجديد.. كل حاجة مربوطة ببعضها قوي..
كل حاجة حصلت قبل كده ومش جديدة.. كلنا بنعيد نفس الأخطاء
وما بتعلمش من اللي قبلنا.. احنا اتخلفنا كلنا بسناريوهات محفوفة.. وكلها
بتحصل لنا كلنا كأننا شخص واحد. المشكلة - أو العبقرية - أن ربنا خلق
الدواير ديه أوسع مما يمكن لعقلنا الصغير أنه يدركها.. دائرة كبيرة قوي..
ما ينفش تركيز في تفاصيلها أو تلمها، إلا لو عشت في دواير كثير قوي
وفضلت فاكر تفاصيلها.. يمكن عشان كده ربنا خلقنا بنسى.. عشان لو
مانسيناش.. ما حدش أصلاً هيغلط!

صمت قليلاً، ونظر للوجوه التي أمامه لحظات، ثم ابتسم قائلاً وهو
يخرج من درج المكتب دائرة ورقية:

- الكلام ممكن يكون ثقيل شوية، بس واحدة واحدة.. م الآخر كده..
انت داخل في دائرة.. والفرق بينك وبين اللي جنبك....

وبدا في فرد تلك الدائرة الورقية لتصبح مستقيمة وأكمل:

- هو انك تكسر أي حاجة في الدائرة ديه.. انك تعرف تغير فيها.. أو
على الأقل، تعرف أولها وآخرها عشان ماتغلطش ثاني..

جاوبته كل العيون بنظرة اعتاد عليها في تلك المرحلة من المحاضرة..
نظرة ملل، مع بعض البلاء وعدم التصديق.. وتلك العيون المحبطة، التي
كانت تتوقع أن ثمن المحاضرة كان لابد أن يذهب في مكان مفيد أكثر؛
كـ(هارديز) مثلاً.. دائها كان يحدث نفسه أنه لابد أن يغير من تلك المقدمة

قليلا.. يجعلها مثيرة أكثر وخاطفة للاهتمام وربما أكثر عمقا وغموضا، حتى يشعروا في البداية بكل ما هو قادم...

أكمل بصوت قوي:

- في المحاضرة احنا مش بنجاوب على أسئلة، ولا بنلاقي مبررات.. احنا هنا بنحاول «نعرف»، في الست ساعات، احنا مش هنفكر في نفسنا وبس.. احنا هنحاول كلنا نفكر، وكل واحد يطلع بالاستنتاج اللي يريجه.

وقال وهو يتجه للسبورة خلفه، ويبدأ في الكتابة عليها وهو يقول:

- احنا النهارده هنقرأ ونسمع عن أربع علاقات.. أربع قصص، بأربع شخصيات.. (أ) (ب) (ج) (د).. فيهم الـ(هييتا) بكل تفاصيلها..

دون أن ينظر لهم، عرف أن هناك أكثر من خمس أياد مرفوعة، فابتسم ابتسامة خفيفة وهو يكتب بخط كبير، ويقول ما يكتبه:

- هييتا، ببساطة ومن غير فلسفة، هو رقم سبعة بالإغريقية.. تعريف الـ(هييتا): السبع مراحل في الحب.. أو السبع مراحل في العلاقات العاطفية.. نفس الشيء تقريبا..

ووضع قلمه الأسود، والتفت لهم، وقد عرف أنهم بدأوا يستعيدوا فضولهم ثانية:

- رقم سبعة ده رقم رائع.. استنتاجي الشخصي اللي ممكن يكون غلط ان الرقم ده هو الدائرة بتاعة المشاعر.. في سبع مراحل لتقبل الموت.. في سبع مراحل في حياة الإنسان.. ده حتى فيه سبع مراحل للحياة ذات نفسها.. في سبع مراحل لكل حاجة في الدنيا.. منها استنتجت، أنا وأخصائيين كثير زيي، السبع مراحل في الحب.. كل واحد بيسمىها بطريقة.. كل واحد بيطلع المراحل على حسب خبرته.. بس ماحدث فيهم سهاها «هييتا» زيي!..

ثم التفت لهم قائلاً:

- كل واحد فيكم معاً الملزمة التي يتوزع قبل ما تدخلوا صح؟..

أوماوا برؤسهم أن نعم، فقال بهدوء:

- دي اللي هانقرا منها مع بعض ان شاء الله...

قالها مبتسماً، ثم التفت للمسبورة وهو يمسك القلم ثانية، ويقول بصوت عالٍ:

- ودايها زي ما كل حاجة بتبدأ.. أول مرحلة هي «البداية»..

ونظر لهم ولعيونهم، التي بدأت أن تلتصع في فضول، وقال مبتسماً:

- نقول «بسم الله الرحمن الرحيم»!



١- البداية

قيل يوما ما انه لا توجد بدايات حقيقية... بل مجرد نهايات مستمرة..

«أحنا هنفضل قاعدين كده كثير؟»

التفت لها (أ) بتلك النظرة الفارغة، التي طالما كرهتها، وقال بصوت هادئ:

- لحد مانزهق..

زفرت في ضيق، وهي تنظر للنيل الممتد أمامها، وتلك المراكب السائرة، منها ما يصدر أصواتاً مزعجة، بتلك الأغاني الشعبية العالية والإضاءة الأكثر إزعاجاً، ومنها الهادئ، ولكن في النهاية حمل لأقصى درجة. زفرت ثانية في ملل، وهي تضم ذلك الشال إلى صدرها أكثر، منتظرة أن يأتي الدفء منه، في ذلك الكافيه المطل على النيل، في عز الشتاء.. في حين يجلس هو مرتدياً ذلك «التيشرت» بالأكمام القصيرة!..

رغبا عنها، تأملته للمرة العشرين.. ربما لأنه مازال يثير تساؤلات كثيرة داخلها، ولا تدري إجابة لها.. هل هو سعيد حقاً؟.. قال لها يوماً إن هذا هو شكله وهو سعيد.. لكنها لا تصدق.. كيف يمكن له، وهو عمره ٣٥ سنة، أن تكون تلك سعادته؟.. وتعود لتسأل نفسها سؤالا آخر طالما سألته لنفسها: هل تحبه؟.. ذلك الملل والفتور الذي يتعامل به مع الدنيا كلها، هل يروقها؟.. أم كونها على أعتاب الثلاثين دون زوج، جعلها تتقبل كل شيء منه، ويكفي أنه «فقط» موجود؟.. مئات الأسئلة السخيفة، التي تريد أن تهرب منها بالخروج معه، علها تشعر به أكثر! لكنه دائماً يذهب بها

لأي مكان.. يسألها عن أحوالها بنصف عقل.. وما إن تنتهي، حتى ينظر لها بابتسامة مجاملة، ويصمت تماما.. يشرذ قليلا، ثم يحاول أن يمزح، ذلك المزاح الذي لا هدف منه إلا تمضية الساعات المتبقية.

لكن ليس اليوم.. لن أسمع بذلك..

اعتذلت في جلستها، وقالت بنفس العصبية..



رفعت إحدى الطالبات يدها، فأشار لها (أسامة) أن تسأل، فقالت:

- هو مش المفروض أن احنا بنبدأ بالبداية؟.. (أ) ده واضح أن علاقته عدا عليها ستين ثلاثة وينتهي.. يبقى ازاي؟

ابتسم (أسامة) ابتسامة خفيفة.. السؤال دائها يعني أن هناك من بدأ يهتم.. لذلك رد بسؤال آخر:

- وتعريف كلمة بداية ايه؟.. غير ان في حاجة لسة منتهية!.. ويعني ايه أصلا كلمة بداية حقيقة؟.. هل هي من ساعة ما اتولدنا، ولا من ساعة ما القلب دق، ولا من أول أيه؟.. عشان كده ماينفعش نقيم البداية من أي وجهة نظر.. لأننا دايما.. بنبدأ من «النهاية»!

رفع واحد آخر يده، فقال (أسامة) بسرعة:

- تعالوا نكمل.. ولو لسة في أسئله نجواب عليها.. ايه رأيكم؟

أنزل الطالب يده في حرج، وأكمل (أسامة)..



اعتذلت في جلستها، وقالت بنفس العصبية:

- أنا مش هافضل قاعدة كده زي كل مرة.. أنا عاوزة أتكلم شوية..
نفث دخان سيجارته في هدوء شديد، دائمًا ما يستفزها، لكنها تجاهلته
وقالت:

- أنا حاسة ان علاقتنا مايتحركش..

ابتناسمة جانبية ظهرت على شفتيه وهو يقول:

- وأيه في الدنيا بيتحرك؟..

دائمًا تلك المحاولات المستفزة لجعل كل شيء عميق.. قالت بعصبية
أكثر:

- أنا في واحد متقدم لي..

ضحك لأول مرة منذ أن جلس، وأخذ نفسًا آخر من سيجارته وهو
يقول:

- ربنا بكرمك.. ايه ظروفه طيب؟

شعرت بدمها يفور، وقالت بعند:

- دكتور أطفال.. مطلق وماعندوش عيال.. وشافني في فرح بنت
خالتي ومستعجل.. عنده شقة في الحي السابع..
بسخريته الدائمة قال:

- مطلق وماعندوش عيال.. تفتكري مايعرفش؟

قالت بعناد، ربما لأنها اعتادت تلك الامبالاة منه:

- لا بيعرف قوي كمان..

لينظر لها وابتناسمته تتسع، وهو يرمي بالسيجارة في النيل:

- دا انت مجرباه بقى..

صممت وهي تنظر له بحدة، فعادت عينه للنيل ثانية، وهو يشعل
سيجارة أخرى، وقال بهدوء:

- تفتكري في كام واحد دلوقتي في الدنيا قاعد نفس القاعدة ديه وبيقول
نفس الكلام؟

قالت بعصية:

- هو ده ردك؟.. انت بتستغزني ولا فعلا مش فارق معاك؟

اتسمت ابتسامته وهو ينظر لأعلى مغمضا عينيه، ثم هز كتفه وقال:

- روحي شوفيه.. يمكن ربنا يوفق القلوب وتلاقى راجل يستاهل انك
تبقى معاه.. ولو طلّع فعلا راجل كو..

قاطعته وقد بدأ صوتها يعلو:

- انت بتهرج صح؟.. يعني أنا مرتبطة بيك بقالي سنة عشان نقول لي
كده؟.. أنت مابتحبنيش؟

لينظر لها في عينيها مباشرة تلك المرة نظرة طويلة.. تلك العين التي دائما
تقول شيئا ما.. تلك العين التي أحببتها، رغم أنها لا تفهمها على الإطلاق..
تلك العين، التي جعلتها في البداية توافق عليه، رغم تحفظها الشديد تجاه
العلاقات والارتباط. طوال عمرها لم ترتبط بشخص قبله، تحاول أن تكون
لزوجها فقط.. حتى مر بها العمر دون أن يعرفها أو يراها أحد.. أحيانا
تسائل ماذا لو كانت أجمل أو في مستوى معيشي أفضل... لكنها كانت
تستغفر ربها، وتثق به وتدعو له أن يجعل صبرها في ميزان حسناتها.. حتى
أتى (أ) بكل ما فيه من تناقضات، فوافقت لأول مرة، لأنها شعرت أنه
فرصة ما..

قال هو بصوته العميق الخافت:

- يا (سلمى).. أنا عشان بحبك قوي.. بقول لك كده..

لم تستطع أن تقاوم تلك الدموع، التي سألت على وجنتيها وهي تنظر له.. تأملت وجهه الممتلئ، وعينه العميقة، وذلك الوجه الذي امتلأ بشعيرات قصيرة في الذقن والشنب؛ ليس ليقول إلا أن هذا الرجل لا يعتني بنفسه إطلاقاً.. رجل قارب على الأربعين، ولا يعي في الدنيا إلا أن يجد شيئاً ما، لا يعرف حتى ما هو، لكنه يريد العثور عليه. كم.. تعشقه!

سألت دموعها أكثر، حين عادت عينيه للنيل في هدوء شديد، وهو ينفخ دخان سيجارته ببطء..

طالما استفزها!..



يا للملل!..

قالها (ب) لنفسه، وهو ينهض من على الفراش في تلك المستشفى، ويجلس رغم ما به من آلام. نظر بعينه لذلك الرجل الأربعيني ذي الشارب، الذي ينام بعمق في الفراش الذي بجانبه.. لماذا جعلوه في غرفة مشتركة؟.. إنه ثاني يوم له يستعد لإجراء تلك العملية، والملل لا نهائي.. ليس هكذا يمضي شاب في السابعة عشر وقته.. المفترض أن يكون مع أصدقائه، يمضي وقتنا أفضل، ولو بقليل!..

نظر لساعته في هدوء.. التاسعة مساء! نظر للغرفة الكثيرة الممتلئة بالأدوات الطبية.. ذهبت عيناه لمجموعة الروايات الموجودة على الكومودينو الصغير بجانبه، فلم يجد منها ما تشد انتباهه. زفر ثانية وهو ينظر لأروع شيء في تلك المستشفى بالنسبة له.. الشرفة الواسعة المفتوحة بعرض

المبنى كله، محتوية كل الغرف، وتطل على النيل في تلك المنطقة بالمعادي..
أمسك تلك العصا ليستند عليها، وينهض متجاهلا ألمه، ويذهب في
خطى بطيئة إليها، وهو يغلق باب الشرفة ورائه، حتى لا يزعج زميله في
الغرفة. واستند إلى سور الشرفة، ونظر للنيل مشدوها!

كيف تحتوي مياة راكدة على ذلك السحر الذي لا يمر على عين أحد؟..
على تلك الحالة الخاصة، التي تأخذك داخلها، ما بين شجن ورومانسية
وحلم وشرود؟!

مرت أكثر من نصف ساعة، وهو لا يفعل شيئا سوى نظراته للنيل،
الشاردة من الدور الرابع في تلك المستشفى؛ حتى رن هاتفه بتلك الرنة التي
عزفها هو بنفسه على المحمول، فنظر للاسم مبتسما في هدوء.. صديقة عمره
(دنيا) - إن كان في السبعة عشرة سنة ما يسمى «عمر» - فضغط زر استقبال
المكالمة، وقال بهدوء:

- يعني ينفع كده؟

ضحكت (دنيا) بمرح وقالت:

- انت اللي قالقنا عليك ودخلت المستشفى.. حد قالك تعمل كده؟

ابتسم في هدوء ولم يرد، فقالت هي:

- بتعمل ايه دلوقتي؟

نظر للنيل ثانية مبتسما وقال:

- بأسأل نفسي سؤال مهم قوي

لم ترد، فأكمل:

- هو النيل هو اللي ساحر فعلا؟.. ولا احنا اللي عاوزين نلاقى السحر
في أي حاجة؟!

ضحكت وقالت مازحة:

- يا سيدي.. دي المستشفى خللتنا فلاسفة أهوه.. فين أيام ماكنت بتبص
لي بصة متأملة كده وتقول لي «تفتكري الصرصار باصصلنا ازاي؟»!

ضحك هو بهدوء.. تعرف كيف تتزعه من أي ملل أو ضيق. استند على
سور الشرفة أكثر، محاولا التخفيف من آلامه قليلا.. قيل له كثيرا ألا يقف
فترة طويلة، وعندما يشعر بالآلم فلينم فوراً.. لكن طوال عمره لم يعرف
كيف يتقيد بالأوامر.. يشعر أن لها ذلك الثقل الغريب على صدره؛ لا يدري
لماذا.. لكنه يعلم أنه في يوم ما سيموت بسبب شيء صحي، ولن يلوم أحداً
لحظتها إلا نفسه؛ لكنه يعرف هذا ويرضى به..
بل أحيانا يتمناه..

«رحت مني فين يا عم أنت؟»

عاد من شروده في مياة النيل، وقال بهدوئه:

- واضح ان احنا اللي عاوزين نلاقى السحر في أي حاجة.. النيل
والبحر والسحاب والجبال كلها جماد.. بس كل واحد بيشف انعكسه
فيهم.. يعني السحر جوانا أحناء.. مش فيهم!
صمتت قليلا، ثم قالت بقلق:

- يا بني ماتلقنيش عليك.. اللي يقولوا الكلام ده وهم داخلين عمليات
بيموتوا بعدها!!

ضحك بشدة، وقال محاولا استعادة روحه المرحه:

- يا ساتر عليك وعلى فقرك.. حد يقول الكلمة دي في وشي كده!
وأكمل ما يشعره:

- ماتخافيش عليّ.. الواحد بس لما يقعد في مكان لوحده كده ومستني حاجة، يقعد يفكر في كل حاجة..

- أعمل لك ايه يعني.. حاول تفك شوية وبلاش الخنقة اللي انت فيها ديه.. انت هتعمل العملية امتي؟

نظر لساعته ثانية وهو يقول:

- ثلاث أيام.. وخمس ساعات

قالت في حنان:

- معلش.. متعدي أن شاء الله وترجع لنا زي الأول كده زي الحصان..
وتقرفنا بتريقتك وبلعبك كورة في كل الحصص!

بتلقاية شديدة، ذهب عيناه إلى النيل وقال بهدوء:

- اللي أنا أعرفه أنا أن شاء الله هرجع.. بس عمري ماهر جمع زي ما جيت!

صمتت تماماً، لا تدري ما تقول، فابتسم هو، وهو ينظر لأرض المستشفى من الطابق الرابع، والنسمة الباردة على وجهه، وهو يسألها سؤالاً يعرف رد فعلها عليه مقدماً:

- تفتكري الطيور بنستمتع انها طيارة فعلاً؟.. ولا زهقانة من تعب جناحتها ونفسها تمشي شوية وتلاقي اللي يربطها بالأرض ويوقوا زينا؟..
وليه بنرمز دايماً للحرية بأنها هتطير؟.. مين قال إن الطيران حرية؟..

قالت وهي تكاد أن تصرخ مازحة:

- يشفي الكلاب ويضرك يا بعيد... بطل بقى الأفلام دي..

اقرب أكثر من السور، وهو يفكر في ذلك السؤال الذي حيره كثيرا.. ماذا سيحدث لو قفزت للحظات قليلة علقا في الهواء؟.. لماذا ترتبط متعتنا دائما بنهاية سوداء، نجعلنا نتراجع عن كل ما هو مجنون؟.. ثم يسأل نفسه السؤال الأهم: هل تريد أن تخلق حقا؟.. هل تريد أن تشعر كأنك طير بلا أي قيود أو جاذبية؟ أم أنك تريد تلك النهاية السوداء، التي تنهي كل مراحل الجنون في ثوانٍ؟..



القمي (أ) مفاتيحه على تلك المنضدة في تكاسل، وهو يغلق باب شقته خلفه في قوة..

تلك الشقة الباردة، التي - حتى الآن - لم يستطع أن يحب أي ركن فيها. ذهب لغرفته، ولم يهتم أن يغير ملابسه، وهو يستلقي على الفراش مغمضا عينيه في تعب..

متى يذهب ذلك الألم المستمر؟

كان ينظر لـ (سلمى) وهي تحاول أن تخرج من شفثيه أي كلمة حلوة.. أي كلمة مطمئنة.. ذلك الاستجداء في عينيه، كقطعة جائعة تقف جانب قدمك منتظرة أن تلقي لها بقطعة من الطعام..

لكنه لا يستطيع..

شيء داخله توقف عن الحركة منذ فترة طويلة.. شيء ثابت.. ممل.. رتيب، يجعل كل شيء آخر بلا طعم أو معنى، فأصبح كل شيء بلا مذاق.. نفس الطعم الماسخ، الممل، الرتيب!

فتح الـ (لاب توب) الخاص به.. وفتح الـ (فيس بوك)، ذلك المرض

الاجتماعي الممتع، الذي أصبح جزء لا يتجزأ من حياة البشر، والذي يتظاهر هؤلاء من يتظاهرون بالاختلاف الآن بأنهم لا يهتمون به!.. فيها مضي كانوا يتظاهرون بأنهم لا يهتمون بالراديو والتلفزيون، قائلين إنه يدعوا لتستطيع العقول..

ضحك ضحكة ساخرة، عندما تذكر صديقه وهو يقنعه بمنتهى الحماس أن (الفيس بوك) هو خدعة المخابرات الإسرائيلية، لجمع كل المعلومات عن البلاد.. ودليله أن كل (فان ييدج) لابد أن تجد بها شخصًا واحدًا من إسرائيل أو اثنين.. وهي حقيقة. لكنه تذكر رده البسيط على صديقه، بسخرية سخيفة:

- مش فاكرا أنا ان إسرائيل عملت لي (اد)..

المشكلة أنه حقا لو سلاح، فهو سلاح للجميع.. لأن كل المخابرات الأخرى ستعرف عنهم أيضا ما يريدون.. يكفي ضغط ذلك الزر السحري (لايك) على أي صفحة، وأصبحت جاسرًا محترفًا!..

نظر لذلك المربع المستفز.. الحالة الشخصية، أو ما يطلقون عليه الآن (ستيت) في القاموس الجديد، كأنها أصبحت كلمة أساسية في اللغة العربية، مثلها مثل (لايك) و(سي دي) و(ديسكات)!

المربع الذي يدعوك لكتابة أي شيء، أيا كان.. فرصة لأن تكتب عن نفسك شيئًا ما، ويراه الآخرون.. وكم يحب البشر أن يتحدثوا عن أنفسهم، في أي مناسبة كانت!..

كتب فيها، مستسلمًا لذلك النداء:

«ورقة في عرض البحر.. مكتوب عليها.. أنقذوني»

وضغط زر نشر دون أن يراجعها.. ولم تمر ثوان حتى وجد «لايك» من

(سلمى)، ثم صوت رنة (سلمى) المميزة.. ليرد متثاقلا يهدوء:

- أبوة..

- في أيه؟.. أيه ال (ستيت) دي؟

- مافيش حاجة.. حسيتها فكتبتها..

لتصمت هي قليلا، وألف سؤال يعتصرها، ولا تستطيع التفوه به..
تعرف أنها لو سألته لن تجد أجابة واحدة مرضية.. هو علمها ذلك.. ستجد
الإجابة التي تريد أن تسمعها، لكنها لن تشعر بها!.. هو يعلم وهي تعلم؛
إذا فلماذا السؤال؟

قالت السؤال الذي نجح في أن يخترق مقاومتها العنيفة:

- بتحبني؟!

ليرد هو الرد القاتل:

- قلت لك كثير.. مادام بتسألني، يبقى أنا مقصر.. ومادام أنا مقصر،
يبقى ممكن أكون مابحبكيش..

لتصمت هي فترة أطول قليلا من سابقتها، في حين لم يبد عليه أنه ينتظر
منها كلاما.. قالت بنفس النبرة التي تجعله يرى القطعة بعينيها، التي تريد
الطعام وتموه في استكانة:

- هو أنت هتتعب قوي يعني لو طلمتني بكلمة واحدة؟

رد بعصية:

- ما أنا اتزفت قبل كده قلت لك إني عمري ما هسيك.. عمري ما
هامشي.. وان انت هتبقى مراقي وكل حاجة.. وأن المشكلة في أنا.. أنا
مابقتش باعرف أبقي رومانسي أو أعمل حاجات العيال الصغيرة.. أبوس

ايدك أنا مش ناقص.. أنا مش رايح في حنة.. وهافضل معاك عمري كله!
رغم تلك الطريقة الجافة والعصية، إلا أنها سمعت من كلامه ما
يطمئنها.. ابتسمت في حنان، لقد عرفته هكذا منذ البداية وأحبته؛ لكن ذلك
الصدى الخفيف الذي يدوي في خلف عقلها.. ذلك الكائن المزعج الذي
يصرخ فيها أن هذا إنسان لا يجب.. لكنها تكذب نفسها دائماً وتصدق.
قالت، محاولة تهدئته:

- أنا عارفة والله.. بس أنت عارف الوسواس اللي بيعجي للواحد ده..
اللي يقول لي إن انت مش بتحبنى ومش عاوز تكمل و..
قاطعها بعصية لم تهدأ بعد، وهو يشعل سيجارة، أصبحت جزء لا
يتجزأ من شخصيته:

- ومليون مرة أقول لك.. أنا أكثر حاجة باصدقها هو الوسواس ده..
يبقى ٩٩ في المية صح.. اسمعيه عشان ماتتو جعش.. عشان لما يحصل أي
حاجة وحشة ولو لا قدر الله سبينا بعض، الوسواس ابن الكلب ده هو
اللي هيقولك «أنا كان عندي حق.. والوجع اللي انت فيه وعموتك ده أنت
السبب فيه».. فساعتها مش هنلاقي حد تلوميه غيرك.. وديه أزل حاجة
ممكن يحسها بشرا..

صمتت، لا تدري أي شيء سوى أنه في تلك الحالة، وتريد أن تهدئه..
هي تعرف كم يتألم.. تلوم نفسها مئة مرة، لأنها لم تستطع أن تمسك أعصابها..
بالتأكيد هو بذلك العصية بسبب موضوع العريس.. بالتأكيد لأي أسباب
أخرى.. لم يكن من الصواب أن تقول ما قالت. صعد صوتها رقيقاً معتزلاً
وهي تقول:

- مانتز علش مني.. أنا آسفة..

صمت تماما وهو يزفر في حقن.. كيف استسلمت واعتذرت، وهو من يؤلمها بتلك الدرجة؟.. كيف لا تصرخ فيه وتخبره أنها لا تستحق منه تلك المعاملة.. لماذا لا تتركه؟.. لماذا لا تترك تلك الآلة الصدئة، التي لا تفعل شيئا إلا إصدار أصوات تؤلم كل من يسمعها؟.. كيف تثق بها بقوله، وهو شخصا لا يدري لماذا يقوله؟..

يا لذلك الألم المستمر، الذي يقتل كل شيء آخر..

في يوم ما، ستشعر بكل ما تشعر به هي الآن.. ستأتي من تذيقك عذابها بهدوء.. ستعشقها، ولن تدرك حتى نصف ما تشعر.. ستكذب نفسك وتصدقها، وتكون هي من تطمئنك ولا تدري لماذا تطمئنك.. ستكون هي المتحكمة في كل شيء.. في انفعالك وحبك وغضبك.. ستريد أن تسمع منها كلمة طمأنة واحدة؛ ولن تجد.. ستحبك بربع قلب، كما تحب أنت (سلمى) الآن، تبعد عنها كل يوم؛ دون أن تدري لماذا، وأصبحت تكره حبها لك، لأنك لا تستطيع حتى أن تلومها على شيء..

قال، محاولا أن يخفي - كمادته - كل ما به بتلك النبرة الهادئة:

- ماتتأسفيس على حاجة أنت ماغلطيش فيها..

وصمت تماما، ليطلق رصاصة الرحمة:

- أنا بحبك..

ليسمع صوت نفسها العميق في رحلة للراحة، وصوتها الذي عادت إليه ثقة عمياء - بمعنى الكلمة -:

- وأنا بعشقك..



موجة من الضحك ارتفعت عالية، في ذلك الكافيه الراقى، مما جعل معظم الجالسين ينظرون لتلك المجموعة من الشباب والفتيات، يضحكون كأنهم وحدهم في المكان.. أربع فتيات وخمسة أولاد..

نظروا جميعا لـ (ج)، الذي كان من الواضح أنه مركز اهتمامهم، وقالت فتاة اسمها (علاء)، وهي لا تستطيع أن تكتم ضحكاتها:

- يخرب بيت عقلك.. أنت (علاء) كان تخبيك عننا فين؟

نظر لها (ج) مبتسما ابتسامة خفيفة، فقال (علاء) مازحا:

- عشان كنت عارف أنه هيفضحني كده..

قالت (علاء) لـ (ج)، وهي تمسك بيد ولد جانبيها يتسم في سعادة:

- أنت ايه حكايته بقى؟

لم يلاحظ أحد تلك النظرة الغريبة في عينيه، التي اختفت بسرعة وهو يقول ساخرا:

- أنا يا ستي عندي ٢٤ سنة.. أعزب.. ومبسوط أوي أول مرة اجي أقعد مع ناس زي العسل زيكو كده..

قالت (علاء)، في حين بدا على ذلك الولد جانبيها بعض الضيق الخفيف:

- أيوة يعني بشتغل ايه؟

ابتسم ابتسامة من يتوقع الرد:

- رسام!

نظر الولد، وقد تلاشى الضيق من على وجهه، وهو يقول بأسا بسخرية واضحة:

- رسام!.. هو في حد لسة ييشتغل رسام؟

أوما (ج) برأسه بمعنى أجل، فاستطرد الولد في سخرية أكبر:

- وناجح على كده؟

لم تتزحزح ابتسامه (ج) لحظة وهو يقول:

- على حسب مفهوم النجاح بالنسبة لك.. أنا بالنسبة لي نجحت في أي
الآفي حاجة عاوز أتعب عشانها ولاقي نفسي فيها.. لكن لو مفهوم النجاح
بالنسبة لك فلوس ومركز، يبقى أحب أوضح لك أي فاشل تمامًا!..

ضحك من معه وضحك معهم.. نفس التساؤل، بنفس السخرية،
بنفس الرد.. كأنها خلق البشر في «بلوكات» صناعية.. لو كان للبشر
نكبات، لأصبحوا جميعا بطعم الملح.. وقليل منهم نجح في أن يكون بلا
طعم.. فاختلف!.

اعتدل في جلسته لتقول (سمر)، إحدى الفتيات:

- وبترسم كويس على كده؟

نظر (ج) لحظات لـ(علا)، وأمسك منديل صغير، وأخرج قلم جاف
من جيبه، ووضع المنديل وفرده جيدا على المنضدة، ثم أغمض عينيه..
وبدأ يرسم!..

شيء ما جعل كل من حوله يصمت تمامًا..

تأملته العيون في فضول ولهفة، وخيل إليهم أن هناك حالة ما حوله،
جعلتهم يراقبونه بذلك الشغف..

مرت عشر دقائق كاملة، لم ينطق أحدهم بحرف واحد، ولم يفتح هو
عينيه لحظة، حتى توقفت يده عن الرسم تمامًا، وفتح عينيه بهدوء، وتأملهم

لحظات مبتسما في سخرية، ثم نظر لـ(علا) وأعطاهما المنديل بهدوء وهو يقول:

- اعتبريه «سوفونير» عشان تفتكري اليوم ده..

نظرت (علا) لـ(أحمد) صاحبها في تساؤل، في حين أحمر وجهه هو، لكنه لم يقل شيئا، فمدت (علا) يدها في هدوء، تمسك المنديل وتنظر فيه..
وتتسع عيناها في ذهول..

كانت تحديق في صورة طبق الأصل لها.. بعينيها الواسعتين، وأنفها الدقيق، وفمها الواسع، وجسدها الرفيع.. رغم أنها محجبة، لكنه رسم شعرها بدقة، كأنها رآها من قبل دون حجاب!.. يخرج من ظهرها جناحان، وفي يدها أساور حديدية تربطها بالأرض.. رغم أن الرسم كله بلون أزرق واحد، إلا أن هناك اختلاف في درجات الأزرق، وظلال خفيفة لا يعرف كيف يرسمها بتلك الدقة إلا محترف..

وكانت في الرسم.. تبكي.. رغم تلك الضحكة الرائعة على شفثيها.. شعرت بشئ غريب، جعلها تنسى كل شيء وهي تنظر للصورة.. شعرت لأول مرة أن هناك ذلك الجهاد الذي في يدها، لكنه.. يأخذها لعالم آخر!..

خطف (أحمد) المنديل في سرعة جعلتها تتفصص، ونظر له قليلا، ثم قال لـ(ج) في استهانة:

- ايه الخرا ده؟

ابتسم (ج) في هدوء، وقال مازحا:

- أنا عارف أنك هتقول كده يا باشا.. أصل بعيد عنك، الواحد في الفن

بالذات يشوف باللي جواه!

ضحكوا جميعا، وضحك هو وهو يقول بسرعة:

- أنا باهزر معاك.. اوعى تكون بتزعل من الهزار؟

لم يرد عليه، في حين ضحك الآخرون أكثر، وهم يرون رسمته ويعلقون عليها، فيهم من أنبهر، وفيهم من قال إنها عادية جدا.. وتقَبَّل هو كلامهم بصدر رحب..

(علا) هي الوحيدة التي أثار الرسم خوفاً مبهم داخلها، وهي تنظر لـ(ج)، الذي يمزح ويسخر من الناس كأنها لم يفعل شيئا على الإطلاق..

ربما لأنها شعرت لأول مرة أنا هناك من يعرفها جيدا..

ربما أكثر من نفسها!..



ارتفعت يد شاب في تلك المحاضرة، فأشار له (أسامة) بإتسامته الهادئة، ليقول الشاب:

- في (أ) احنا بدأنا بنهاية علاقة.. وفي (ب) ماعرفناش أي حاجة.. كل ده عادي.. بس في (ج) كده احنا بدأنا علاقة رومانسية وحصل انجذاب ما بين طرفين.. أنا مش عارف أنت دلوقتي في أي مرحلة.. أنا اتلخبطت!

صمت (أسامة) قليلا، لا شيء يسعده أكثر من الأسئلة.. المحاضرات التي عمر دون سؤال واحد، يعرف أن كل من سيخرج منها سيكون مثله والبعير، لن يخرج بنتيجة.. تلقى المعلومة في صمت تام، وعندما عرف أنه لا يوجد امتحان، اكتشف أنه لن يحفظ شيئا، فلم يحاول أن يفهم شيئا..

نظر للشاب وقال:

- اسمك أيه؟

قال الشاب في هدوء:

- (محمد حسن)..

قال (أسامة) وهو يدون اسمه في ورقة:

- ماشي يا عم (حسن)..

ونظر له مكملًا بابتسامة:

- هارجع وأقول لك إن احنا لسة في مرحلة البداية.. البداية اللي مش لازم تكون أصلاً بداية.. أنت لو فكرت في بداية الكون، هتكتشف إن البداية عمرها ما كانت لما آدم اتخلق.. حتى لما تيجي تقول «هو ايه اللي كان موجود قبل آدم وقبل الملائكة والشياطين»، هتلاقي علماء الدين بيقولوا لك ماتفكرش في الحاجات ديه عشان هتوهك وتخليك تكفر، فانت تخاف على طول وتبطل تفكير..

شعر بثقة مملوءة وهو يكمل:

- كل اللي حصل ده هو الحالة اللي بتخلي قلب النبي آدم مستعد.. الحب مش بيبدأ بنظرة ولا ابتسامة ولا الحركات ديه.. الحب اللي بجد هو اللي الدنيا عمالة تهيئك ليه من ساعة ما اتولدت.. بكل حاجة وحشة وكل حاجة حلوة.. بعلاقات بابطة وجراح ما بتنسبش.. الحب بيبدأ بجد لما القلب يبدأ يسأل سؤال صغير كده قوي يفرق في كل حاجة.. لما يسأل: «هو أنا مش هارتاح بقي؟».. الحب أصله استعداد نفسي.. عشان كده مرحلة البداية هي أهم مرحلة، بكل اللخبطة اللي فيها، لأنها هي اللي بيسجي فيها لحظة معينة بنقدر نستسلم لأننا ممكن نتوجع تاني!

لاحظ نظرة البلاهة على وجوههم، فابتسم في هدوء وقال:

- حد فيكم فاهم حاجة؟

أوما بعض المجاملين بالإيجاب، في حين تولي معظم الطلاب الصرحاء
الرفض، فضحك وقال:

- عامة.. واحدة.. واحدة..

ونظر للملف الذي أمامه وقال:

- نخش في (د)..

* * *

«فوووووووووووووووووووو»

قالها (د) بصوت عالٍ، ليضحك كل من حوله، فيبتسم هو في سعادة
حقيقية، وهو يمسك تلك الطائرة الصغيرة، قالت الفتاة التي تجلس أمامه:

- ايه الصوت العبيط ده؟

قال هو بحماس شديد:

- ده صوت الطائرة..

نظرت الفتاة للأرض، وهي تلاعب ذيل فستانها وقالت:

- أنا مابحش الفيونكات.. بس ماما بتحب تعمل لي فيونكات كثير..

لم يدر بماذا يرد؛ ثم تذكر، فاستعت عيناه في حماس وقال:

- أنا عاوز أطلع طيار.. وأركب طائرة.. وأطير في السما.. وأعمل

فوووووووووووووووووووو..

لم تضحك تلك المرة، فشر بإحباط قليلا، ثم قال مواسيا إياها:

- أنا كمان مابحبش الفيونكات على فكرة..

ابتسمت الفتاة وهي تنظر له، في حين جاءت أمه ونظرت لهم، وقالت بحسرة:

- سبع سنين ومغلبني بموضوع الطيارات ده.. هتفضل شقي كده؟

* * *

ارتفعت أياد كثيرة تلك المرة، فصاح فيهم (أسامة) ضاحكا:

- أبوة سبع سنين.. وهفضل نحكي قصته، عشان عارف الاعتراضات اللي هتيجي..

نزلت الأيادي في لحظتها، فقال هو ضاحكا:

- هو مين فينا اللي دكتور عاوز أعرف؟ المصريين دول لازم يعدلوا على أي حد!

ضحكوا في هدوء ضحكة مجاملة، فأكمل:

أول حب في الحياة هو اللي بيحدد النبي آدم ده ايه أصلا وهيكمل ازاي!.. اصبروا.. وعامة هو قصته مش هتاخد وقت..

علت ابتسامات ليست مجاملة تلك المرة..

فأكمل..

* * *

صاح هو في اعتراض، مشيرا للفتاة:

- أنا مش شقي.. (مروة) هي اللي مش بتحب الفيونكات..

نظرت له (مروة) بغضب، وقالت:

إليها جميعاً، فضحكت معتذرة، ليضحكوا معها..

ابنسم (أسامة) في هدوء وهو يقول:

- هو ده رد الفعل الي مستنيه..

وأكمل، بعد موجة الضحك التي شعر منها أن هناك استمتاعاً بالمحاضرة، وأنها خفيفة على قلوبهم..

- كده عدينا بأول مرحلة، وهي مرحلة البداية.. معظمكم لسة مش فاهم حاجة.. في منكم اللي زهق.. بس صدقوني، من أول اللي جي الدنيا هتبدأ تتظبط معاكو.. ومن الآخر كده.. هنعش في المفيد..

وذهب للسبورة، وهو يكتب ويقول ما يكتب:

- المرحلة الثانية..



٢- اللقاء

فيل في ما مضى أن بمجرد نظرة العين يحدث العشق.. كانوا كاذبون!

«دي المرحلة الوحيدة اللي لولا اني باحث علمي وماينفعش أقول
المصطلحات دي في أبحاثي.. كنت سميتها مرحلة «المسخرة»..»

قالها (أسامة) باسمها في مرح، وأكمل:

- مرحلة خرق القواعد.. مرحلة الجنان.. مرحلة تحولنا لكائنات ثانية..
يمكن فعلا نتشبه كلنا بعالم الحيوان، لما كان يقول «وفي موسم التزاوج،
تصدر أنثى الكلب راتحة من مؤخرتها لتجذب الذكور».. كلنا بتتحول
لحاجة زي كده، بس على طريقة «بني آدميني» شوية..

وصمت ليأخذ نفسه، ولأنه تعلم أن الصمت المفاجئ في المحاضرات
يجعل من شرد قليلا يعيد تركيزه.. وأكمل:

المرحلة دي هتطول معنا شوية.. بس هي من أهم المراحل في الـ
«هيبتا».. عشان..

وصمت قليلا، وأكمل:

- وليه الاستعجال... اللي لازم نعرفه دلوقتي ان المرحلة دي بتتقسم
لتلات مراحل.. أولهم.. (ما قبل المحاولة)..

* * *

تأمل (أ) كل شيء حوله..

كل شيء يبدو ثابتا للغاية..

ذلك الإحساس، الملل في حد ذاته، أنه لا جديد سيأتي، ولو بعد حين..

لكن ماذا تنتظر أنت الآخر؟..

منذ متى وجدت من ينظر للمعلقة صغيرة، متوقعا منها أن تطور نفسها،
وتبدأ في تعلم التقطيع مثلا؟!

هل ذلك الإحساس بالفراغ منطقي؟ أم أنك استعبدته؟..

نظر (أ) للشارع، الخالي في ذلك الوقت، وهو ينفخ سيجارته جالسا في
الشفرة في الدور التاسع، على مقعد بلاستيكي أخضر، سائدا قدمه على سور
الشفرة، ميمّلا المقعد للوراء قليلا..

«أنا شفت النهارده «أنتريه» روعة.. صورتهولك عشان تشوفه وتقولي
لي رأيك فيه»

آه.. صحيح..

ومعه هاتف!..

رد بربع عقل:

- كويس.. ابعثي لي الصور على «الفيس»..

خطرت له فكرة، لم تعد تبدو بذلك الجنون السابق.. سؤال جاء في
عقله سريعا وطمسه.. هل أصبحت يائسا لتلك الدرجة، لتشعر أي شعور
جديد؟.. هل أصبحت فكرة كنتلك بسيطة؟ أم من كثرة ما تأخذ من
مسكنات أصبحت لا تشعر بشيء؟!..

لم يرد على نفسه، فقط قال لـ (سلمى) في هدوء:

- (سلمى).. أنا هاخش الحمام.. دقيقتين وهاكلمك تاني..

لتصمت هي قليلا، ثم تقول في محاولة لجعل صوتها مرحا:

- بس ماتعملش زي كل مرة وتنسى، وأفضل انا مستينة بالأربع ساعات!

أغلق هو دون أن يرد.. دون أن يسمع من الأساس.. صعد صوت هاتفه بأغنية يعشقها، اختارها.. ونهض بهدوء شديد، وهو يرفع قدمه واقفا على الكرسي.. ويمد قدمه بشغف أكثر منه قلق.. ليجعل قدمه اليمنى تقف على السور!..

نظر لكل ما هو تحته، من هذا الارتفاع الشاهق.. كل شيء يبدو صغيرا لدرجة مريحة!.. البشر والعربات والمشاكل والهموم.. كل شيء في غاية الصغر. ربما لهذا يعيش أهل الجنة في راحة، عندما يدركون أن هناك أشياء أكبر بكثير من تلك التفاهة، المسماة «دنيا»..

استند على قدمه اليمنى، ليصعد بجسده كله على إطار الشرفة، العريض قليلا، سائدا بيده على سقف الشرفة، مزيدا من حد الجنون قليلا!..
ضرب الهواء جسده بشدة..

نسى للحظات كل ما يتعلق به، وبأسه، وفراغه، وملله..
وابتسم..!

ازدادت سرعة الهواء وهي تضرب جسده، فأغمض عينيه وهو يضحك بشدة.. يمر برأسه سؤال سخيف.. إن كان هذا ما يسعدك، لماذا لم تذهب لمدينة الملاهي قليلا، وتريح قلوب كل من يعرفك؟!.. ولكنه يعرف أن هناك شيئا ما أعمق.. في الملاهي هناك، ذلك العنصر الذي يفسد كل شيء..
الآمان!..

نسي كل شيء، وهو يزيد حد الجنون قليلا في استمتاع خبيث، فيترك
سقف الشرفة المستند عليها، ويفرد يديه جانبه بطولها.. وشعر بجسده يميل
للأمام قليلا.. لكنه لم يعبأ..

السقوط الحر..

ما الجديد فيه؟..

منذ أن خلقت، وأنت تسقط سقوطا حرا..

كل ما ربيت عليه.. كل ما تعشقه.. كل أخلاقك وأحلامك و«كمالك»..
يتناقص تدريجيا حتى لحظة الاصطدام الأخيرة، وهي الموت..

شعر بجسده يتمايل للأمام وللخلف في بطاء، على نغمات الموسيقى..
لكنه لم يعبأ.. فقط..

ترك نفسه يشعر..



ابتسم (ب) في خجل، حاول أن يداريه بسخرية، وهو يرفع بنطاله
وينظر للممرضة، قائلا في ابتسامة مرحة:

- شكرا.. حقنة شرجية روعة!

ضحكت الممرضة في شفقة، وقالت:

- معلش.. أوامر الدكتور..

ضحك (ب) ضحكة عالية وهو يقول:

- أنا مش متضايق.. بس كل مرة آخذ الحقنة عشان العملية.. العملية
تأجل وأبقى خدت الحقنة على الفاضي!

ومال عليها مكملًا بأسلوب ساحر مازحا:

- دانا بدأت أقتنع يا (فاطمة) انك عارفة انها هتأجل بس بدأت تعجبي
باللامؤاخذه!

ضحكت بشدة في حرج، وهي تضربه في كتفه.. وقالت:

- مش متبطل لماضة بقى؟!

هم بقول شيء ما، لكن شعر بشيء ما، فذهب للحمام بسرعة، مدركا
أنهم جميعا سيفقدون قلة ذوقه..

قال لها زميله في الغرفة، العقيد (هشام)، متسانلا بصوت عالٍ حتى
يسمعه:

- هو صحيح ليه كل شوية العملية بتأجل؟..

قالت المريضة بأسف:

- الدكتور من أشهر الدكاترة في مصر.. في حالات طارئة وصعبة جدا
بتجيله فيضطر بأجل العملية دي شوية..

قال (ب) في سخرية من داخل الحمام:

- وماينفعش ياختي يعرف الحالات الطارئة دي قبل ماأخذ الحفنة؟..
عشان الموضوع بدأ يوصل لإدمان!

سمع ضحكاتهما؛ لكنه لم يكن يتنسم..

ثلاثة أسابيع في تلك المستشفى، فقد كل ما يتعلق بأدميته تماما..

لم يعد هناك حرج من شيء.. أصبح جسده عرضة لأي شخص، إذا كان
طبيبًا أو ممرضًا أو حتى طالبًا جامعيًا في الطب، يمر في جولات كي يتعلم..

مل الأصدقاء والأهل من طول فترة الإقامة، حتى شعر أن جميعهم يريدون له أن يدخل العملية، عاش أو مات فيها.. المهم أن تكون هناك أحداثاً..

شيء ما.. دائماً ما تفقده دون أن ندري.. في لحظات الانتظار..
وقوع البلاء.. ولا انتظاره..

خرج من الحمام، ناظراً لهم في هدوء، ثم قال باسمها:

- أنا ما طلع البلكونة أشم شوية هوا..

قالت الممرضة في حنان، كمن تنظر لأبنها:

- براحتك يا حبيبي.. اتشطفت؟

نظر لها في استنكار وهو يقول:

- وحياة أُمِّي كل مرة أقول لك إني ١٧ سنة.. واتعلمت الموضوع ده من زمان!

ضحكت وضحك زميله في الغرفة، ليخرج هو للشرفة كالمعتاد..

لا يختلف السحر أبداً، سواء ليلاً أو نهار

تنتشر أشعة الشمس متلألئة على صفحات المياه، تعلن عن انكسار روعتها أشلاء، على رقة الأمواج الخفيفة..

دائماً ما نجد في الطبيعة شيئاً.. ونهايته.. ولذلك الشيء روعة.. ولنهايته أيضاً روعة!.. كل شيء موزون بدقة، تجعلك تؤمن بالله مرات عديدة في اليوم الواحد.. كل شيء دقيق وموزون، عدا ذلك الكائن الذي خلق بها يسمى (عقل).. فجعل كل شيء لا يمت للميزان بصلة!..

سمع نحنحة جانبه، فالتفت بشروء.. ليجدها واقفة..

هزيلة الجسد هي.. تدور حول عينيها هالة سوداء خفيفة، تعلن عن انتصار ضعفها عليها.. بيضاء البشرة لحد الذهول، كأنها لا تسري في عروقها نقطة دماء.. ترتدي ثياب المستشفى، مع ينطال خفيف، لأن - في العادة - رداء المستشفى قصير، وقوة الهواء تجعله يلتصق بجسدها ويتطاير.. عيناها بنية أو عسلية، ذلك المزيج المصري الأصيل.. وصلعاء تماما.. لكن ذلك لم يأخذ من جمالها الهادئ شيئا..

وتنظر له مبتسمة في حرجا..

أدرك أنه أطال النظر إليها، فتتحنج هو الآخر، وقال:

- ايه الأخبار؟

ابتسمت هي، وقالت بصوت رقيق:

- أنا كويسة الحمد لله.. انت عامل ايه؟

استند على سور الشرفة وهو يقول:

- لسة واخد حقنة شرجية.. فلو طلعت أجري في أي وقت ماتخافيش..

ضحكت في خجل، في حين لام هو نفسه قليلا.. فعلا المستشفى جعلت حركة معدته شيئا من الطبيعي مناقشته في أول لقاء مع أي أحد. قالت هي بهدوء، وهي تسند على السور مثله:

- عادي يا باشا.. كلنا مرينا بالمواضيع دي..

قال لها ماذا يده، دون أن ينظر لها:

- (ب).. ١٧ سنة..

مدت يدها له قائلة:

- (سارة) .. ٢٠ سنة..

وأكملت ناظرة لطوله الشديد قائلة:

- شكلك مايديش ١٧ خالص!

ابتسم ابتسامة هادئة دون أن يرد، فأكملت هي:

- أنا بس كنت عاوزه أعتذر لك.. عشان أنا السبب في أن عمليتك

اتأخرت.. وهتأجل ثاني النهارده..

التفت لها في تساؤل.. كيف لتلك الفتاة رائعة الجمال أن تكون هي «الحالة

الطارئة»؟.. توقع أن تلك الحالات عادة ما تكون راقدة على فراشها، مخضبة

بالدماء.. ثم أدرك بعدها الجزء الثاني من جملتها، فصاح مستنكرا:

- نعم؟.. هتأجل ثاني النهارده؟؟..

انفضت من صيخته، وتراجعت للخلف قليلا، في حين التفت للنيل

هو، وقال:

- يا ولاد الكلب!

صاحت بصوتها الرقيق في ندم:

- أنا آسفة والله.. أنا كنت فاكدة انهم قالوا لك.. معلش أنا عارفة أن..

قاطعها قائلا في أسى:

- أنا مش مشكلتي أن العملية اتأجلت بسبك.. ألف سلامة عليك

طبعا!.. أنا مشكلتي في أم الحقنة اللي عمالين يدوها لي دي!

صمتت لحظات، ثم لم تستطع أن تمنع تلك الضحكة التي خرجت منها

دون قصد، فنظر لها لحظات مبتسما هو الآخر في هدوء، لم يلبث أن تحول

لضحكة صافية منه هو الآخر..

ما زال داخله سؤال بسيط، شغله عن كل ما فيه من ملل..

كيف تكون (سارة) هي الحالة الطارئة؟

ولماذا لا توجد شعرة على رأسها؟..

ولماذا يشعر بأنه يعرفها منذ زمن؟!

* * *

نظرت (علا) للرسم على المنديل في شروء..

لن يصدقها أحد، عندما تقول إن هذا ما تتخيل نفسها فيه قبل نومها..

الجناحين.. والقبود.. والحزن.. والحرية..

أو الأمل في الحرية!..

وذلك التوقيع بإسمه، المستفز الخاص به، في آخر الرسم ينظر لها ببرود

يستفزها!..

لمدة نصف ساعة، تأملت في الرسم وهي لا تعرف حتى فيها تفكر..

عقلها تحول لصفحة بيضاء تماما، لا يوجد فيه مكان لخاطرة!.. زفرت في

قلق وهي تقلب المنديل في يدها، ثم توقفت تماما وهي تنظر لظهر المنديل..

وما كتب عليه..

لماذا تراه لأول مرة الآن؟.. وكيف لم تره يكتبه في «الكافيه»؟!

«إلى عين نفسها تدوق طعم «الروح»..»

وجانبتها، كتب بريده الإليكتروني الشخصي!!..

ما تلك الوقاحة؟؟..

استشاطت غضبا في لحظة.. ماذا يظنها؟ ماذا يعتقد في أخلاقها، حتى يظن أنها ستضيفه وهي مرتبطة بشخص آخر؟!..

تذكرت (أحمد)، فطلبت على الهاتف. لا بد أن يعرف حتى يتصرف معه، جرس طويل، ثم صوت (أحمد) يصيح بسبب ذلك الزحام حوله:
- (علا).. عاملة إيه؟

قالت له بغضب:

- (أحمد).. في حوار مهم عاوزاك فيه..

قال لها وهو يضحك:

- ماينفعش نأجله شوية يا حبييتي.. أصل أنا الكينج في البولة والعيال متعصبين..

قالها بفخر صبياني سخيف.. لماذا يصر الرجال على الفرع بأي فوز مهما كان، كإثبات للرجولة؟.. قالت بعصبية:
- لا مش هينفع..

سمعت صوت أحد أصدقائه يقول مستخفا:

- ماينفعش نأجله شوية يا حبييتي؟.. ماهي لازم تركبك يا روح حبييتك..

وصوت ضحك كل من حوله، لتجد صوته هو يتبدل قليلا إلى الصرامة وهو يقول:

- خلاص يا (علا).. قلت بعدين..

قالت بسخرية:

- فعلا؟.. بتشد عليّ أنا بدل ما تلم الأهل اللي جنبك ده؟

صاح متأقفا:

- يرووووووه.. يلا سلام يا (علا)..
صاحت:

صاحت:

- سلام..
ترك الهاتف دون أن يغلقه، فسمعتة يصيح في أصدقائه:

- الله يلعن أبو الارتباط عالي عاوز يرتبط.. مش عارف اللعب بولة
استميشن بمزاج.. بلا خراا..
ليضحك أصدقاؤه بشدة، فتغلق هي الهاتف في عصبية، وتجلس على
جهازها لتفتح الـ (ماسنجر)..
* * *

قال (أسامة) بابتسامة:

- نصيحة لكل ذكر على وجه الأرض.. إياك تضايقها.. أو تفكر إن
وجعها.. سهل..
* * *

كتبت بريده الشخصي.. وضغطت زر إضافة في حسم.. ولم تمر ثوان،
حتى وجدت قبول الإضافة، مع رسالة منه:

- كنت مستنيك..
زادتها كلمته غضبا، فكتبت:

- أنا مش ضففتك عشان حلاوتك.. أنا ضففتك عشان أقول لك إنك حيوان!..

ليجاوبها رد زادهما غيظا:

- ما انا عارف!..

* * *

هل يترك للجاذبية أن تؤدي نداء الطبيعة عليه؟..

هل يصبر حقا، حتى يقرر ربه أن ينهي حياته؟.. أم ينهيها هو الآن مرتاحا؟..

كيف أصبحت ميولك انتحارية الآن؟.. وفجأة؟.. وأنت واقف على ذلك السور، والهواء يضرب كل شعرة فيك، ويعطيك إحساسا لم تشعر به من قبل..

تلك الموسيقى..

صوت الكمان، الذي يدخل قلبك في كل لحظة أينما سمعته..

حرك كتفاه بسرعة بطيئة نسييا، متناغما مع الموسيقى.. مغمض العينين.. داخله سؤالان غاية في الأهمية..

إلى أي حد يمكن أن أصل؟..

ولماذا لم أقع حتى الآن؟..

ماذا ينتظر القدر؟..

بل لماذا ينتظر هو أصلا..

ذلك الألم المستمر.. الذي لا يهدأ..

هل سيرتاح منه أخيراً؟..

هل.. سينهيه بيده؟..

لماذا ينتظر الموت؟

لقد مات منذ وقت طويل..

ولم يتبق داخله إلا ألم مخيف..

ترك جسده يميل للأمام قليلاً.. وهو يفتح عينيه، ليلقى نظرة أخيرة على كل من حوله.. داخله كلمة واحدة فقط..

أنا..

استسلمت..

* * *

قال (أسامة) بنبرة هادئة:

- اسم (ما قبل المحاولة) اسم ممكن يكون ناشف شوية..

* * *

انطلق (د) راكضاً، وهو يضرب جرس شقة جارهم جرساً مستمراً..
لتفتح له أم (مروة) ضاحكة، ليركض هو داخل الشقة دون استئذان صائحا:

- (مروة).. جيتلك حاجة معايا..

وعندما دخل غرفتها، ووجد فتاة أخرى ومعهم ولدتين.. صمت تماماً..

وهو يشعر بشيء غريب عليه.. شيء لا يفهمه..

* * *

أكمل (أسامة):

- اسم المرحلة دي المفروض يبقى اسم أحلى من كده بكثير قوي..

* * *

كتبت (علا) في عصبية:

- بتضحك على إيه يا حيوان..

ليرد (ج) بهدوء شديد، ظهر حتى في حروفه:

- عشان أنت بتكدي على نفسك قبل ما تكدي عليّ..

كتبت، وهي تكاد تحطم لوحة المفاتيح:

- يابني أنت بتتكلم كأنك فاهم الدنيا والي فيها.. أنت تعرف إيه عنني أصلاً؟

لبصمت هو قليلاً.. ثم تظهر لها رسالة، جعلتها تراجع للوراء مذهولة..

فقد كتب:

- اني بحبك!

* * *

قال (أسامة):

- المرحلة اللى الواحد بيعخون كل حاجة عاهد بيها نفسه قبل كده..

كل وجع اتوجعه، وكل قرار قرره بأنه مش هيسلم قلبه تاني لحد.. بيعخون الحرف من الجرح.. بيعخون عقله.. بيعخون حتى نفسه!

* * *

شي جعل (أ) يعيد يده بسرعة، لتستد على سقف الشرفة، قبل أن يقع
بشوان..

في ذلك المبنى البعيد قليلا عنه؛ لكنه على ناصية شارع بالضبط.. كانت
جالسة هناك.. على سطح ذلك المبنى، تشرب سيجارة.. تجلس بحيث
قدمها تتدلل للخارج، وتحركها كطفلة صغيرة..
وتنظر له..

لا يرى ملاحظها بسبب بعد المسافة، لكنه يستطيع فقط أن يعرف أنها
تشاهده..

ليست قلقة.. ليست خائفة..

فقط..

تأمله..

كما اعتاد هو أن يتأمل كل شيء..

بلا أي مشاعر..

على الإطلاق..



قال (أسامة):

- .. ازاوي؟ ازاوي القلب بينسى كل حاجة ويسلم نفسه كده؟ .. وازاي
بتحصل في لحظة واحدة من غير أي مقدمات؟ .. أي حد قال لك إنه خد
وقت عشان «بحس» بالحب كدب عليك.. أو ماحبش أساسا.. لأن دايبا
- من غير استثناءات - اللي يحب بجد.. أول مايشوف حبيبه بيحس

بحاجة.. مهما كانت صغيرة.. مهما كانت ولا حاجة.. يبحس ان اللي قدامه ده.. هيقى حاجة مختلفة..



شي ما جعل (ب) يتجه للممرضة، ويقول بصوت خافت، كمن يتفق على خطة شريرة:

- (فاطمة).. هي مين اللي في الأوضة اللي جنبي وأجلتو عمليتي عشانها دي؟

قالت (فاطمة) بشفقة:

- دي (سارة) يا حبة عيني.. رابع عملية ورم في المخ تعملها..

لم يستطع منع اندهاشه وهو يقول:

- بس دي عندها ٢٠ سنة!

قالت بعينها الطيبة:

- ادعيها بس ان ربنا يقومها بالسلامة.. عشان الدكتور شخصيا مش متطمن المرة دي..

شي ما جعله يتركها، ويتجه لغرفتها مسرعا، رغم آلامه الشديدة، ليجد سيدة عجوز تبكي، استنح أنها أمها، واستنح أيضا أنها قد ذهبت لإجراء العملية..

وشعر شعور لم يصدق..

وغير منطقي..

أنه افتقدها..!



قال (أسامة):

- مرحلة أن كل حاجة مش منطقية.. كل حاجة ماتتصدقش.. كل حاجة بسرعة قوي.. اللحظة اللي بتلاقى فيها تعريف بسيط لنفسك.. اللحظة اللي اتخلقت لها أصلا.. إحساس أنك ناقص «حثة»..

* * *

كتبت في انفعال:

- أنت مجنون؟...

ليكتب (ج)، كأنها يحفظ ما سيكتبه:

- هو أنا قلت إنى عاوز اربط بيكي دلوقتي؟.. انا بقولك معلومة بسيطة جدا.. أنا بحبك.. بس كده..

ضحكت في استهانة وكتبت:

- وبعدين؟

ليكتب هو بحروف ملأتها الثقة:

- هاخليك تحبيني!

* * *

هبط (أ) من سور الشرفة في سرعة، وهو يتأمل مذهولا تلك الفتاة الجالسة على السطح ترمقه مباشرة. شعر أنه يتخيل.. أنه في حلم أو شيء من هذا القبيل.. رفع يده ملوحا لها..

ليجد يدها ترتفع مفردة، وتحركها بالقرب من رأسها كالتحية العسكرية... فابتسم في بلاءة، ليجدها تنهض وهي تنظر له، ثم تقف على

السور الرفيع قليلا، جعلت قلبه يخفق في خوف مفاجئ عليها، ليجدها تفرد ذراعيها وتمشي على السور، كمن يمشي على الحبل.. لكنها تمشي بمتنهي الاتزان، ودون قلق أو خوف..

ظل يتأملها، كمن يتأمل ملاكًا بنفس الانبهار، ليجدها تلتفت إليه فجأة، مشيرة له بعلامات حاول أن يفهمها.. علامة بمعنى الجنون.. ثم ضمت يدها وفردت إبهامها - وأنزلته لأسفل..
ابتسم عندما ترجمها في عقله..

«جنانك.. وحش»..

وأخرجت لسانها له في طفولة، وهي تهبط من على السور، وتختفي من أمام عينيه في ثوان..
لكنه ظل يحدق بالمكان لفترة طويلة..



قال (أسامة)..

- مرحبا بكم.. في مرحلة «الوقوع في الحب».. أو مرحلة «كيوييد».. أو مرحلة الجنان.. سموها زي ما تسموها..

والنفث لهم قائلًا بحماس:

- كثير منا مش يفهم ايه اللي بيحصل له.. بس أنا من رأيي - شديد التواضع - أن ربنا خلقنا كلنا زي ما احنا خلقنا كل حاجة.. عاشق.. ومعشوق..

وأكمل ببسمة:

- كل مسمار.. ليه المعشوق بتاعه، اللي لو صح، عمره ما يفك أو ينشد

بعيد عنه أبدا.. الفكرة ان الأحاسيس بتشابه.. في ناس كثير بنفهم منها غلط ان هم دول «معشوقنا».. بس لما بنعرفهم أكثر.. بنكتشف قد ايه هم مش مناسبين.. «بنلقلق» فيهم.. بنحس ان المكان مش بتاعنا وكل حاجة ناقصة.. بس هنوصل للنقطة دي بعدين.. خيلنا في مرحلة الوقوع.. حد فيكم يقول لي.. مين فيكم حصل له كده لحد دلوقتي؟..

وابتسم في رضا، عندما ارتفعت معظم الأيادي في حماس شديد..

وتسع ابتسامته وهو يقول:

- حد فيكم فهم أي حاجة؟

هبطت الأيادي كلها مرة واحدة، ليضحك هو قائلا:

- يبقى أنا نجعت..



نظر (أ) لساعته..

الحادية عشر ليلاً..

ظل ينظر للسطح مشدوها..

هل تطل عليه مجدداً؟ أم ستذهب ولن تعود ثانية؟..

لا

لن يسمح لها بالعودة ثانية..

شعر بطاقة لم يشعر بها منذ فترة طويلة.. شيء خارج المنطق جعله يذهب لباب شفته، وينزل راكضاً على السلم.. رغم وجود المصعد، وآلامه الشديدة.. لكنه هبط على الدرجات في سرعة لا تدل إلا على ما في قلبه..

هناك شيء ما يحركه.. هو شخصياً لم يكن يعرف ماذا سيفعل.. هل يتوقع أن يجدها على سطح ذلك المبنى؟.. هل عندما يذهب لها في ذلك الوقت المتأخر ما الذي سيقوله؟.. ثم السؤال القاتل، الذي يجعله يتحرك بتلك السرعة..

هل هي موجودة أصلاً؟..

فتح مدخل عمارته في سرعة، وبدأ في الركض في الطريق، وفي ركضه ظهرت لأول مرة عرجته الخفيفة، ذلك النقص الذي يعرف أنه موجود، ويجاهد كي لا يظهره.. لكنه لم يعبأ.. ظل يركض، حتى وصل لذلك المبنى الذي رآها على سطحه، وصعد سلمه أيضاً..

كأنها، رغم كل لهفته، يتصارع داخله خوفاً من ألا يلقاها..

فيأخذ الطريق الأطول..

كل ما مر به في حياته علمه أن ذلك «السحر» غير موجود..

ذلك الشيء الخارج عن كل حدود «المنطقي»، والذي إن كتب في رواية أو في فيلم، لن يتهموا صاحبه إلا بالخيال الجامح، وعلى لسانهم تلك الكلمة الميتة..

هذا لن يحدث في الحقيقة أبدا..

تعلموا الموت.. نحفظوه..

ويقنعوك به بمتهى الفخر..

ما داخله من إحساس لحظي بالحياة والاندفاع لا يسمى إلا بالسحر..
صعد للسطح، فوجد بابه مفتوحا، أمامه طوبة تمنع انغلاق مفاجئ،
وذلك الهواء يضرب كل شيء حوله، في برودة لم يشعر بها طوال حياته إلا الآن..

دخل ببطء شديد، يتأمل السطح الواسع، الذي تلوثت تلقائيته بكل
تلك الأطباق الواسعة، التي تستقبل من السماء ما تبته للناس، ليتعلموا
ذلك الموت اللذيذ..

مسحت عيناه السطح ببطء متلهف..

دقات قلبه تملو رغما عنه..

ذلك الهدوء.. الليل الذي يعشقه.. البرودة التي تدغدغ كل شعرة في
جسده..

لا يصح أن ينتهي كمال تلك اللحظة بعدم وجودها..

لا بد أن تكون..

«كده جنانك بدأ يعجبني..»

التفت لها في ذلك الركن البعيد، الذي يطل على ميناءه، ورآها..
وهي تنظر له..
مبتسمة!..



كالمعتاد ذهب (ب) للشرقة..
وكانه اختيار حر لديه..!

لا يدري لماذا.. لكنه كره انتظار خروج (سارة) من العملية.. كره رؤية ذلك الرعب في عين أمها.. تلك الساعات التي تمر دون أن تفعل شيئا إلا الانتظار..

أسوأ ما في المستشفى، أنك ترى مستقبلك في عيون كل من حولك..
كل هؤلاء المرضى.. ذلك الشعور الرتيب الذي يصاحب كل شيء.. نظرة أمك القلقة في عيون كل الأمهات، وهن في لحظات الانتظار لخروج ابنهن من العملية.. الممرضة تأتيك بتلك النظرة الروتينية القاتلة، تتألم أمامها فلا تبالي، حتى تشعر أنت بالخجل من أمك.. لسان حالها يقول «لقد شاهدت من هم أسوأ منك حالا ولا يتألمون.. فلماذا تتألم أيها الطفل الرضيع؟»..
لا يوجد من هم أسخف ممن يستخفون بأمك..

نظر للنيل الذي صادقه الآن.. مرت عليه ثلاثة أسابيع، ينظر له ويتأمله كل يوم.. يعرف الآن قصة كل من يقف أمامه بعين الخيال.. هؤلاء العشاق، الذي يسرقون قبلة أو حضن دون أن يراهم أحد.. ذلك الرجل الكبير الذي ينظر للنيل بالساعات، منتظرا أن يعرف ذلك الشيء الذي سمعه في كل خطب الجمعة..

عمره فيها أفناه!..

أخرج تلك المفكرة الصغيرة من جيبه..

كان يعرف جيدا أنه، بعدما يجري تلك العملية، سيظل شهورا راقدا.. وعندما يتعافى تماما، سيظل يعيش بنصف حياة.. لن يكون هناك كرة قدم إلا على الكمبيوتر.. يعلم جيدا أنه لابد من أن يجد شيئا يحب أن يفعله، حتى لا يموت مللا في «حياة ما بعد الجراحة»، كما يحب أن يسميها..

في الأسابيع الماضية، حاول أن يجد أي شيء يفعله.. جرب الكتابة وفشل فيها فشلا ذريعا.. لا يكتب أكثر من جمل يحاول أن يبدو فيها عميقا ولا يعرف.. لذا، عندما أخرج المفكرة من يده، شعر بالملل من الكتابة.. فبدأ في رسم خطوط بلا معنى.. متذكرا معها ذكريات طفولة يحاول ألا يتذكرها... وقف جانبه رجل، مشعلا سيجارة وينفخها بقوة، فنظر له (ب) باشمزاز قليلا، فنظر له الرجل ضاحكا وقال:

- مايتحبش السجاير؟

ابتسم (ب) وقال بهدوء:

- ماجربتھاش عشان مااحبھاش.. بس أنا بكرھھا كره العمى.. عشان أنا مش هاسمح لنفسی أنى أبقى عبد لأي حاجة غير دماغی! ونظر للرجل قائلا بصراحة مطلقة:

- والصراحة ينزل من نظري أي حد يبشر بها..

لا يدري لماذا يتكلم بتلك الوقاحة، لكن ذلك الشعور بالقلق على (سارة) جعله يتصرف بعصبية غير مفهومة، حتى بالنسبة له.. وهذا في حد ذاته جعله يشعر بعصبية أكثر!..

ضحك الرجل وقال ساخرا:

- حرام.. حتى انك تبقى عبد لدماعك حرام.. احنا مش عباد أي حاجة غير ربنا!

ثم تأمل السيجارة لحظات وقال:

- في حكمة بتقول لك «ماتقولش للمدخن بطل سجاير.. قول له: ايه الحاجة الي واجعك ونفسك تحكيها؟»

ابتسم (ب) ساخرا وقال:

- وايه بقي الي واجعك ونفسك تحكيه؟

ضحك الرجل ثانية بمرح، شعر معه (ب) بالدهشة، والرجل يقول:

- لا أنا ما فياش حاجة.. أنا باقول لك الحكمة بس..

وأخذ نفسا عميقا من السيجارة، وهو يلقيها بعيدا، ثم ينظر لـ(ب) نظرة طويلة، جعلت (ب) يشعر بالإحراج قليلا، ثم قال له الرجل فجأة:

- ماتحكمش على حد من حاجة بيعملها.. أقول لك على حاجة أنقح.. ولا حتى لما تعرف ليه بيعملها..

نظر له (ب) لحظات، ثم قال:

- أمال أحكم عليه امتي بقي؟

ابتسم الرجل، ونظر للنيل طويلا، ثم التفت لـ(ب) وقال بضحكة مستهزئة:

- ماتحكمش أصلا.. أنت مال أهلك؟!

قالها وهو يعطيه ظهره منصرفاً، ورغم ما في الكلمة من إهانة إلا أن
(ب) لم يرد عليه..

ونظر للتبل ثانية..

منتظراً خروج (سارة)..

* * *

كتبت (علا) بعد فترة صمت:

- تخليني أحبك؟ .. انت أهبل يا بني؟ ..

كتب:

- أهبل؟ .. من الحصيلة اللغوية في الإهانة ما لا فتيش غير أهبل؟ .. :

وبدأ ذلك السجال الإلكتروني، الذي لا تعلم حتى الآن كيف استمرت
فيه..

- أنت عاوز مني إيه؟

- هو أنت عاوزة تسمعها مني كثير ولا إيه؟ :

- مش فاهمالك والمصحف.. انت مقتنع أنك متسحرني بقى وأنا اقع من
طولي من حنينك؟

- أسحرك ممكن.. بس تقعي من طولك دي عمري ما ارضاهالك..

- لي راجل يرد عليك..

- أختلف معاك في تعريف كلمة راجل.. بس قشقة..

- انت عارف أنا لو قلت لـ (أحمد) اللي أنت بتعمله ده هيعمل فيك إيه؟

أنت فيها دي ليه؟.. ليه غلط قوي أنا أقول لك اللي حسه؟

كثبت بتردد:

- عشان كل حاجة ليها قواعد.. كل حاجة ليها أصول.. لو كل الناس بتعمل زي مانت بتعمل كان زماننا في غابة.. أي حد يحب مرات أي حد.. كل الناس تسرق الحاجة اللي مش من حقها.. مافيش أرض هنقف عليها تخيلنا نعرف الصبح فين والغلط فين!..

أخذ وقتنا تلك المرة، ثم كتب:

- مافيش حاجة في ديتنا أصلا (صبح).. كلنا عمالين بنخبط فيها.. كلنا بنحاول نعيش على قد مانقدر.. ماحدش عارف ولا فاهم ولا متأكد من حاجة.. كلنا بلا استثناء غلط.. فلما الناس الغلط هي اللي تحدد الصبح.. يبقى أصلا (الصبح) ده.. غلط!

لا تعرف حتى الآن لماذا تحدثه.. لا تعرف كيف أمكنه أن يجعلها تسمع.. أن تستلم لما يريد ه هو في النهاية..

شعرت فجأة ما تشعر به ذبابة حائرة، لا تدري لماذا لا تحلق.. ثم تكتشف تلك الشباك الخفية لعنكبوت هي التي تمسك في اجنحتها..

كتب هو، كأنها شعر بها فيها:

- أنا هاقول لك على لعبة حلوة..

لم ترد، ولم ينتظرها هو..

- أنا هاقول لك كل حاجة فيك.. هاقول لك أنا شايفك ازاي.. ولو طلعت صبح.. كل اللي طالبه أنك تسمعي.. بس كده

كثبت في ببطء..

- ولو طلعت غلط في اللي هتقوله؟

كتب:

.. يبقى البلوك التمام.. ولا من شاف ولا من دري..

صممت تفكر لحظات، لكنني وجدت تلك العلامة التي تقول إنه يكتب،
كأنها يعتبر موافقتها شيئاً مفروغاً منه..

كالاعتاد..

يصدق ما نكره أن تعترف به لنفسها..

* * *

قشعريرة مرت بجسد (أ)، جعلته يقف ولا يفعل شيئاً سوى أن ينظر
لها..

لم يرها من قبل في حياته.. هذا نفى داخله هاجس أنها من خيالاته..
جسدها الصغير.. شعرها المتراقص في عفوية، ويتطاير مع الهواء..
عينها البنية الواسعة اللتان تحتلان كل من يجرؤ أن ينظر لهما.. شفيتها
رفيعتان مبتسمتان.. أنف مستقيم..

ثم الأروع..

تلك الموسيقى الحنونة، التي تصدر من هاتفها المتصل بساعتين، يجعلان
الصوت ساحراً..

هذا عالمها إذًا..

هذا السطح هو عالمها..

ظلت تنظر له مبتسمة، ثم أخرجت علبة السجائر من جيبيها، وأخرجت

سبجارة وأشعلتها بقداحتها المعدنية الفضية اللون..

هل يكون من قمة السخافة أن يسأل نفسه كيف أشعلتها في هذا الهواء الشديد؟..

تلقت نظراته المتسائلة بنظرة مطمئنة، ثم ضحكت ضحكة صافية، وقالت:

- انت من النوع الي يفضل يمس كثير؟

طوال عمره سريع الرد حاضر الإجابة؛ لكنه فعلا لا يشعر الآن إلا أنه يريد أن ينظر فقط.. أن يتأمل تلك الحالة، التي ظهرت له فجأة من حيث لا يدري..

تدخل الموسيقى الناعمة كل ما في حواسه..

صوت الكمان يرد عليه البيانو، في مزيج لا يذوب فيه إلا من عرف طعم الأمل.. والألم..

ومتى افترق طعمهما في تلك الحياة المريضة؟..

قال بصوت خافت، تمنى ألا تسمعه:

- هو أنت بجد؟

لتخيب هي آماله، وترد عليه باسمه، بعين تلمع في حنان مرير:

- واه الي يثبت لك؟

فكر في كل الأشياء المنطقية، ولم يجد.. إن جاء بأصدقائه كلهم، وجعلهم يقسمون أنها حقيقية، لن يصدق.. بل إن أقسمت عيناه شخصا، لن يصدق.. ما الذي تفعله فيه تلك الفتاة؟.. ما كل هذا الذي تجبره أن يشعر به مرة واحدة؟.. قست الموسيقى على قلبه فجأة.. ذكرته بكل شيء جاهد

طوال حياته أن يهرب منه.. كل ما يدفعه من خوف وضعف ومواقف أثبتت له أنه أضعف من حشرة.. شعر بدمعة تملأ عينيه.. دمعة دائما ما تنوء في الطريق لعينيه، من قسوة هروبه..

نظر لها مجيبا عن سؤالها، وهو يستسلم تاركا الدمعة تهبط على خد واحد في سرعة، هاربة من ذلك الجحيم الذي يعتمل داخله:

- حضن..

نظرت للأرض لحظات، والتمعت عيناها بدموع غزيرة، مع ضحكة رائعة، تزين كل ركن في وجهها.. ضحكة حنونة مقدرة.. ضحكة تفهم كل شيء، كأم عاشقة..

رفعت إليه عينيها، وهي تترك دموعها أيضا، وتفتح ذراعيها على مصراعيه، في رسالة واضحة وصريحة بالايجاب...

لم يفكر، وهو يذهب نحوها بخطوات تريد أن تعرف طريقها.. تسارعت خطواته وهو يقترب منها، في لفة ماتت داخله منذ زمن بعيد.. ورغم سرعته، ولا يدري لماذا، شعر أن كل شيء بالتصوير البطيء..

وعانقها..

وضع رأسه على كتفها، وأغمض عينيه، والتفت ذراعا حول وسطها، واحتوت يداها ظهرها كله، في حين أحاطت يداها برقبته، كأنها تشبث به من كل ما تخافه من الدنيا.

ذلك الدفء..

ذلك الـ.. كل شيء..

شعر بروحه تغمره من جديد.. وكأنها فرضت بطارية مشاعره منذ أمد

بعيد، وأصبح جسد ميت.. وعاد من يشحنه من جديد..
ترك رأسه على كتفها، الذي لا يعرف كيف ارتاح من قبل على كتف
قبله..

«الحضن» هو الشيء الوحيد الجسدي بين البشر، الذي يلمس روعة
«الروح»..

أن تترك نفسك، وكل ما يؤملك بين ذراعي من تعشق.. أن تترك نفسك
وكل ما يؤملك له..

وتوقف الزمن كله للحظات..

ولو بسيطة..

مسحت بيدها على شعره بعد فترة، وقالت، تحاول أن تعيد بسمتها:

- طول عمري بحب الي يبصوا بس.. بيطلع منهم أحلى شغل..

ابتسم هو، وقد بدأ يفتح عينيه، ويعود شخصًا واحدًا ثانية، فقالت هي:

- صدقت؟

عاد له الكثير من نفسه، فنظر لها ماسحًا تلك الدمعة الهاربة، وابتسم
قائلًا:

- بس ممكن أفتنع أكثر ببوسة..

ضحكت وهي تضربه في كتفه، وقالت ضاحكة:

- أيوة كده يا جدع.. هزر.. جتك القرف!

ضحك معها قليلًا، ثم خطر بباله أغرب سؤال يأتيه الآن..

قال لها في حيرة:

- أنت مين؟



«ايه الهبل ده؟»

قالها أحد الطلاب في حدة، فالتفت له الجميع، حتى (أسامة) الذي صمت ولم يتكلم، فأكمل الطالب بحدة:

- ايه «الأفورة» دي؟.. أنا لما جيت هنا كنت جبي عشان محاضرة بتتكلم عن سبع مراحل الحب.. الحب بتاعنا احنا.. بتاع الناس العادية.. حب (شبياء) بنت الجيران اللي بتضرب فول الصبح وتنزل الجامعة.. أو حتى يا عم حب صبي عجلاقي لواحدة عنده في الشارع.. عن التفاصيل الصغيرة اللي من مصر دي اللي تخليني أصدق..

ثم نظر لباقي الطلاب، وأكمل بحدة:

- لكن ايه يا عم واحد كان هيتحرل في واحدة في السطح راح طلع حضنها وهي لا تعرفه ولا هو يعرفها؟.. والثاني العيان اللي حب واحدة لسة عارفها من خمس دقائق؟.. والثالث اللي رسم واحدة وهو مغمض عينيه وحبها قوي من أول قعدة؟.. دي مش ثقافتنا.. مش حياتنا.. أنا مش لاقى نفسي في ولا قصة من القصص.. مش عارف حتى استطعمها ولا اصدق انها بتحصل في الحقيقة.. فرقت ايه أنت عن أي فيلم أمريكي رخيص بيخلي الرومانسية مجرد مشاعر «أوفر» قوي عمرها مابتحصل في الحقيقة؟..

التفتت العيون كلها إلى (أسامة)، الذي نظر للطلاب في صمت طال.. مع ذلك الهمس بين الطلاب، الذي لم يميز فيه إلا كلمة «الواد ده برنس» التي تتناقلها ألسنة الرجال بالذات..

ابتسم الطالب في سخرية وهو يقول:

- أنا ماشي..

قالها وهو ينهض فعلا، ونزل درجات السلم حاملا معطفا جلديا وانجه للباب، فقال (أسامة) بصرامة:

- استنى..

نظر له الطالب لحظات طويلة، وهو يقف أمامه.. في حين تعلقت كل العيون بـ(أسامة).. الذي عادت ابتسامته الواثقة على شفتيه، رغم أنها أول مرة يتعرض لهذا الموقف في محاضراته كلها..

قال للطالب:

- تعالى..

قال الطالب ساخرا:

- هو حتى هنا في تذييب ولا إيه؟

ابتسم (أسامة) وقال بهدوء:

- اسمك إيه؟

رد الولد:

- (يحيى المهندس)..

تركه (أسامة) بهدوء، وهو يتجه لنفس المقعد الذي كان يجلس فيه (يحيى)، وجلس عليه.. ثم نظر لـ(يحيى)، الذي وقف أمام الطلاب في حيرة، فقال له (أسامة) بصوت عال:

- أنت إيه حالتك العاطفية؟

ارتبك (يحيى) قليلا، ثم تمالك نفسه وقال مستعيدا هدوئه:

- مخاطب

ليسأل (أسامة):

- بتحبيها؟..

ابتسم (يحيى) وقال:

- طبعا..

ليسأل (أسامة):

- يعني أيه؟..

ساد صمت طويل تلك المرة، ثم هز (يحيى) كتفيه وقال:

- يعني بحبيها.. بحس معاها بحاجات حلوة.. بلاقي نفسي معاها
وينسى الوقت.. وحاسس أني ممكن أهد الدنيا عشانها..

ليسأل (أسامة):

- أول مرة تحس بيها كانت أمتي؟

بدأ (يحيى) في ابتسامة حانية وهو يقول:

- أول مرة شوفتها فيها في الجامعة.. كانت ماشية في وسط اصحابها
وحسيت بحاجة غريبة.. أني أعرفها من زمان.. حسيت أني عاوز.. أني
عاوزها تبقى مراتي وأم عيالي.. حسيت أنها خدتنني من حاجات كتير قوي..

ليسأل (أسامة):

- عملت ايه عشان توصل لها؟

ضحك (يحيى) وهو ينظر لكل من في القاعة:

- فضلت راسق وراها ولازقلها لحد ما عرفت أوصل لها.. اتشلقبت لها قرد..

ضحك الطلاب معه، ليسأل (أسامة):

- فرقت ايه وانت بتحكي عن (أ) و(ج)؟..

صمت الجميع لحظات، في حين استعاد (يحيى) سخريته وهو يقول:

- أنا مارحتش حضنتها في أول مرة شوفتها فيها.. ولا كانت هي مرتبطة ورحت أعلقها..

ليسأل (أسامة):

- ساعة ما حسيت بيها أول مرة.. كنت تعرف أي حاجة عنها؟.. إذا كانت مرتبطة ولا لأ؟..

نظر له (يحيى) صامتا، ليكمل (أسامة):

- انت حسيت وخلص.. والكلام اللي أنت قلته عن أنها تبقى مراتك وإحساسك الغريب.. هو ده تفسير عقلنا لإحساس بسيط قوي احنا بنرفض نصدقه أو بنمنطقه، على حسب الطبيعة اللي نشأنا فيها.. اللي هي «مصر» اللي بتقول عليها.. الإحساس ده مالوش غير ترجمة واحدة.. أنك عاوز حد يحتويك.. الاحتواء ده بيكون شامل كل حاجة... مشاكلك وهموك وفرحك وظروفك.. وبخيلك تقرر تشارك حد وتقاسمه بقية عمرك..

ونفض من كرسيه، وهو يعود أمام الطلاب ثانية، أمام نظرة (يحيى) المستنكرة، وأكمل بحماس:

- معاكم أن القصص الي هنا ممكن ماتصدقش شوية.. بس ايه المانع
أنا نصدق شوية «خيال»؟.. هنموت لو صدقناه؟.. وايه المشكلة في شوية
«خيال»، مادام فيه كل الي احنا بنحسه وبنخاف نقوله حتى بيننا وبين
نفسنا؟..

وأكمل مشيرال (بجي) أن يعود لمكانه:

أنا مش هافر الكم في المحاضرة دي قصص جاية من واقع صفحة
الوفيات.. فلان حب التجوز خلف مات!.. والعزاء لكل الي مافهمش
عملها ازاى.. أنا هنا عشان أقول لكم ازاى الواحد مننا يقع في نفس الفخ
الي بييجي منه كل الوجع والحزن والألم.. وعشان تفهموا، لازم تحسوا..
وعشان تحسوا، لازم تغمضوا عنكم عن كل القرف الي حوالكم..
تغمضوا عنكم وتسرحوا شوية في دنيا الخيال.. وتسالوا نفسكم سؤال
واحد.. ممكن يغير حياتكم كلها، لو فعلا اقتنعتم بيه..

وصمت لحظة، ليعطي كلمته التأثير المطلوب:

- ليه.. لا؟!

صمتوا جميعا ناظرين له.. يعلم جيدا أن نصفهم لم يقتنع، ونصف آخر لا
يتكلم، كي يعرف إذا كانت النقود التي دفعوها تستحق أن يسمعو لذلك
المعتوه، الذي يتكلم عن الحب كأنه الحياة كلها..

ليتهم يعلمون..

أنهم لم يخلقوا من الأصل إلا كي يحبوا..

عبادتهم حب.. إيمانهم حب.. تحملهم لكل ما في الدنيا من نخبط
عشوائي حب..

طرد أفكاره من ذهنه، وهو يكمل باسمًا مغيرًا للموضوع:

- بدمتكم ما وحشكوش (د)؟

* * *

قالت له أمه، وهي تدخل الغرفة عليه:

.. (مرورة) عاوزاك..

عقد ذراعيه أمام صدره، وهو يعطي ظهره لأمه، وقال بنضب:

- أنا مخاصمها..

ليجابه صوت (مرورة) قائلاً بانزعاج:

- ليه بس؟

التفت لها بفرحة، ثم أدرك أنه غاضب، فعقد حاجبيه وهو يرفع إصبعه الصغير في وجهها - علامة الخصام الأبدي - ويقول:

- أنا مخاصمك

ارتفع حاجبا (مرورة) في ضيق حقيقي، وقلبت شفتها السفلية في تلقائية، وهي تقول وهي تكاد تبكي:

- أنا عملت ايه؟..

قال وهو يقلب شفته السفلى أيضا:

- انت بتلعب مع ناس ثانية..

اقتربت منه، وقالت بادئة في البكاء فعلاً:

.. والله هم جم لوحدهم.. وكيان ماما بتاعتهم قالت لي ألعب معاهم..

وانا لو ماسمعتش كلام الكبار هاروح النار..

لم يرد عليها، رغم اقتناعه التام بكلامها، وهو لا يرضى أبدا أن تدخل النار بسببه، لكنه ظل عاقدا حاجبيه في غضب عتيد، حتى سمع صوت نهبتها، فالتفت إليها ونظر لها لحظات.. ثم اتجه لدرج مكتبه الصغير، وأخرج منه تلك الورقة المقطوعة من كراس الرسم.. وقال بأسيا:

- أنا كنت جيت عشان اديكي دي..

مسحت دمعتها وهي تبسم، ومدت يدها تلتقط الورقة، و(د) يكمل:

- ده الهوم ورك بتاع ميس (نجوى).. قالت لينا ارسمو حاجة بتحبوها..

نظرت للرسم، ثم اتسعت ابتسامتها، في أنقى تعبير عن الفرح..

كانت الرسمة كلها عبارة عن طفلين، ممسكين يدي بعضهما، مع شمس تخرج منها خطوط طفولية، وبعض السحب وطيور.. ولزيد من الإيضاح، وضع سهما على الطفلة، مكتوبًا عليه بخط متعرج (مروة)، وعلى الطفل الآخر سهما مكتوبًا عليه (أنا)..

شعرت (مروة) بفرح شديد، فنظرت لـ(د)، الذي يقف أمامها بوجه خجول، ثم اتجهت ناحيته ومالت عليه لتقبله في خده، وهي تقول:

- أنا بحبك قوي.. ثالك يو..

وركضت مسرعة خارج الغرفة..

خلفها (د) يتحسس خده في استغراب..

مبتسما في بلاهة طفل، عمره ٧ سنوات..

* * *

وأكمل بحماس:

- مثلاً.. (ج) عمره ماكان هيعمل اللي عمله الا لما لقي ان (علا) فيها الحطة الناقصة اللي فيه.. اللي هتعرف تفهم كل ده.. (أ) ماكانش هيجرو أنه يقول (حضن) غير لما عرف أنها هتفهم.. لأنها لازم تفهم..

ثم أخذ نفساً عميقاً وهو يقول:

- عشان كده ببيان قوي.. الفرق بين اللي حب بجد.. واللي حب الاهتمام بس.. ثلاث أرباع الجوازات بيبقى عشان ييجبوا الاهتمام.. بيعوض نقص جواهرهم أو بيخليهم يعيشوا في (موود) الحب.. بس اللي هما مش عارفينه.. ان الحب مش تعويض نقص.. الحب اكتمال روح..

رفعت أحد الطالبات يدها، وقالت دون حتى أن يأذن لها:

- بس (ب) ماحاولش.. كل اللي عمله أنه استناها..

ليبتسم (أسامة) ابتسامة خبيثة قليلاً وقال:

- آمال تفتكري ليه مسك المفكرة.. وبدأ يرسم؟..

نظرت له في حيرة، ليقول هو مسرعاً:

- الجزء الثالث من المرحلة الثانية.. وأسعدها.. (الموافقة)..



ما زالت الموسيقى تنساب بنعومة، مخترقة كل ذرة فيهما تريد أن تشعر..

عندما سأها (أ)، نظرت له ولم تحب، فقط قالت بيسميتها الغريبة، التي تجمع كل التناقضات:

- ترقص؟

نظر حوله، مستعيدا إحساسه بالواقع.. هل تصادف أنها فعلا قابلته في ذلك السطح؟.. أم أنها تريد أن تجعله يدرك كيف يبدو كل شيء من ذلك الارتفاع الشاهق.. صغير..

كل الآلام والمآسي التي مر بها تبدو..

صغيرة..!

ذهب معها كال مسحور، وهي تمسكه من يده، ذاهبين لمتنصف السطح.. وأحاطت رقبته في هدوء شديد، وبدأت تتهايل معه على نغمات الموسيقى، التي تجعله ينسى من أين أتى وأين سيذهب.. ومن يكون..

ألهذا يجرّ مون الموسيقى؟..

لأنها تعطيك رائحة من ضياء الجنة؟..

ظل يحدق في عينيها الواسعتين اللتين تتأملانه بنظرة غريبة..

نظرة استغاثة.. جنون.. حنان.. وقسوة..

نظرة لم ير مثلها إلا في..

مرآته..

قال بصوت متهدج:

- أنت ازاي برة الدنيا كده؟

قالت، بعد ضحكة خافتة وبعض من تمایلها معا:

- الدنيا هي اللي برّايا..

أمسك يدها، ورفعها لأعلى، لتضحك هي وتدور حول نفسها، فيتطاير

شعرها معها، مثيراً أكبر قدر من المشاعر في قلبه، الذي نسي معنى كلمة هدوء منذ رآها..

ظلت تدور حول نفسها مبتعدة عنه، فذهب وراءها، حتى اقتربت من السور، ونظرت له بتحدٍ قليلاً.. ثم اعتلته في هدوء شديد، ووقفت عليه على أطراف أصابعها، بثبات عجيب!.. صاح فيها بخوف حقيقي:

- انزلي..

نظرت له بنظرة عابثة، ثم قالت:

- لو وقفت على السور ده زبي.. هاقول لك اللي أنت عاوزه..

قال، وهو لا يستطيع أن يداري ذلك القلق الذي يملأ كيانه:

- يا ستي عنك ما قُلتِ أي حاجة.. انزلي بس..

لم ترد عليه، فنظر لكل شيء حوله لحظات، ثم ذهب بحماس للسور، واعتلاه، وحاول أن يقف مستقيماً، لكن جسده أخذ يترنح، في محاولة مستميتة لإيجاد مركز اتزان.. الهواء يضرب فيه بشدة، فأنحنى ثانية، ليمسك بالسور بيديه في خوف، تعجب هو منه بشدة.. ورفع عينيه إليها، ليجدها تنظر إليه ساخرة وتقول:

- أمال كنت واقف على سور بلكونتك ومش خايف ازاي؟

أمسك في السور أكثر، وقال بصوت مهتز:

- ماكتش لاقيتك..

قالها دون أن يفكر، فانسعت عيناها في دهشة لحظات، ثم نظرت لنفسها، بذلك الثبات الذي تقف به، وقالت ساخرة:

- يبقى أنا لسة مالاقيتكش..

فهم قصدها، فقال لها يرجاء:

- ممكن تنزلي..

ثم بثقة ملأته فجأة أكمل:

- وهتلاقيني..

لتنظر له هي لحظات طويلة، تحترقه بعينيه.. ثم قالت بهدوء:

- ماشي يا عم..

وضحكت قائلة، وهي تنزل من على السور ويتبعها هو:

- challenge.. accepted

* * *

- انت ازاى تقلقينا عليك كده؟

قالها (ب) في ابتسامة لـ(سارة)، التي كانت راقدة على فراشها، وهناك شاش كبير يلتهم من رأسها جزء كبيرًا.. فضحكت هي ضحكة خافتة، وقالت:

- ربنا يخليك.. انت عامل ايه؟

كانت قد خرجت من عملياتها منذ يومين، لكن لم يسمح لأحد بالزيارة إلا الآن، فقالت له أمها، التي أشعرته أنها أمه في الأيام الماضية، أن يذهب ويزور (سارة) قليلاً، لأنها مكتتبه.. فذهب..

قال لها مبتسماً:

- المعتاد.. ملل شوية.. بقالي هنا فترة العملية بتأجل.. وحفن شرعية..

بس كده..

ضحكت ضحكة قصيرة، ثم ساد بينهما ذلك الصمت الغريب.. هو لا يعرفها، وهي لا تعرفه، وهو يحفظ ذلك الكلام المعتاد لتهنئة كل من خرج من عملية.. ثم أن آلامه في ذلك اليوم بالذات لا تطاق. قطعت هي الصمت بسؤالها:

- هو أنت عندك ايه؟

قال بإبتسامة:

- عندي بلاي ستاشن عاوز أبيع..

لم تضحك، ف شعر هو بسخافته، لكنها قالت بجدية:

- لا أقصدي مريض بإيه؟

ذلك السؤال الذي يعتصر فيه ألماً لا يدرك معناه.. ابتسم ابتسامة خفيفة وقال:

- سيبك مني أنا وقولي لي.. الوجد عامل ايه؟

نظرت له لحظات.. السؤال يبدو بريئاً من الخارج، لكن ذلك العمق الذي نطقه به، جعلها تنظر لعينه فتأكد من قصده، من تلك النظرة الهادئة المتأملّة..

قالت مبتسمة في هدوء:

- الوجد بياخد منك كتير قوي..

أوما برأسه إيجاباً، فنظرت للأرض وقالت مبتسمة:

- نصيحتني ليك.. الحق نفسك قبل ما الوجد يغيرك.. لأنك عمرك ما هتعرف ترجع ثاني..

لمس كلامها داخله وترأ، جعله يعتدل في جلسته، لتكمل هي بدمعة
تترقق في عينيها:

- اعمل كل اللي نفسك فيه.. احتفظ بكل حاجة دلوقتي ممكن تفكر
بيك.. الحق اللي فاضل من روحك..

شعر أنه جعلها تكتب أكثر، فابتسم قائلاً:

- هو أنا هاموت ولا ايه؟

لم تضحك، لكنها نظرت له في هدوء، وهي تمسح دمعتهما وقالت:
- أسوأ..

لم يرد عليها، وهو ينظر لها.. لا يتذكر ماذا قال لها، ليعتذر.. وينصرف.
كل ما يتذكره هو أنه خرج من غرفتها مسرعاً في مشيه.. وأمسك هاتفه
المحمول، وهو يخرج للشرفة المطلّة على النيل، الذي تتهايل شمس الغروب
حوله في رقة، وهو يطلب رقياً يحفظه عن ظهر قلب..

لا يتذكر إلا عندما سمع صوتها على الهاتف تقول في مرح:
- باشا..

ليقول هو بسرعة، كأنها يلفظ أنفاسه الأخيرة:
- (دنيا)..

وأخذ نفساً قصيراً وهو يقول:
- أنا بحبك..



كتب (ج) بسرعة:

- أنت شخصية طيبة جدا.. دمك خفيف.. ليكي وجود ملحوظ في كل مكان بتروحيه.. بتحبي تشدي عين الناس ليكي.. بتحبي تبقي مركز اهتمام.. حساسة جدا.. رومانسية جدا.. بس مابتحيش تبيني ده قوي.. نفسك تتحرري من قيود كثير.. نفسك تلاقى نفسك صح..

ثم صمت قليلا وكتب:

- بس موجوعة قوي..

ابتسمت ساخرة وكتبت:

- وهي دي دخلتك اللي بتخلي البنت تدمع وتقول «راو.. ده فاهمني قوي».. ما كلنا موجوعين.. ايه الجديد؟..

كتب كأنها لم يقرأ شيئا:

- مسكتك لايد (أحمد) مسكة مش حلوة.. مسكة بتحاولي تبيني فيها أنك بتحبيه.. بس مش مسكة ايد واحدة بتحب.. فغالبا (أحمد) شخصية نمطية قوي.. حد «أمان» زي مايقولوا.. كل حاجة معاه متوقعة.. كل حاجة معاه ثابتة لمدة عشر سنين قدام..

همت أن تكتب «ما اسمحكش».. لكنها تراجعت ومسحتها، ليكمل هو:

- متدلعة شوية.. يعني تقريبا أنت بنت وحيدة في عيلتك.. أو ليكي أخوات بس مش بنات.. إحساس التميز اللي في عينك ده غالبا بيبقى من كده.. اهتمامك بلبسك وطريقة حجابك.. وآه..

واكمل:

- وبتدخني بس ماقولتيش لحد.. سجاير «مور» الرفيعة الطويلة دي..
وغالبًا بالنعناع..

اتسعت عينها في دهشة حقيقية تلك المرة.. ليكمل هو:

- وجعلك أعمق من أي حد.. أنا مش عارف اذا كان باباك عايش ولا
متوفي.. بس عينك وطريقة كلامك بتقول إنه لسة عايش.. لسة موجود
لمحة منه فيك.. بس مش موجود كأبي أب.. عشان كده هاقدر أقول لك إن
والدك والدةك مطلقيين بس طلاق محترم..

سقط فروها منها في ذهول، في حين أكمل هو:

- انت شفت مامتك وهي بتضرب أو يبحصل فيها حاجة مش كريمة..
مسكتك لسلسلتك كل شوية وانت بتكلمي مش بتقول غير أنك بتفكري
نفسك بالوجع ده.. مافيش مرة مسكتيها إلا وكنت سر حانة.. جوالك طفلة
بتطلع في الكلام كاسلوب هزار، بس أنا مش باخد الحاجات دي هزار..
انت مفتقدة براءة فيك مش عارفة تلاقىها.. عشان كده مش هاستبعد أنك
مسمية كل حاجة عندك.. وأكيد في دبدوب كبير شوية.. وغالبًا بتنامي
وأنت حضناه لحد دلوقتي..

نظرت لـ «دبدوبها» في خوف، في حين صمت هو طويلا، ثم كتب:

- وأنا كنت خايف أقول لك حاجة زي كده..

انقبض قلبها في خوف، متوقعة ما سيقوله، في حين كتب هو:

- بس أنت حاولت تتحري قبل كده..

نهضت من كرسيها مفزوعة وهي تنظر للشاشة، ونظرت حولها لي
غرفتها، متوقعة أن تجد كاميرا ما في الغرفة..

كل ما قاله صحيح مائة في المائة..

كتب هو مكملًا:

- ومرعوبة مني دلو قتي عشان أنت عمرك ماقلت الحاجات دي لحد قبل كده.. ويتكر هي أي حد يعرف يخش جواك من غير ما تسمحى له..

كتبت وهي تكاد أن تحطم الكيبورد:

- أنت عرفت ازاي؟.. أنت ليه عاوز تجتني؟

كتب هو آخر ما توقعته:

- يبقى أنا كسبت في اللعبة..

وصمت لحظات، ليكتب بهدوء:

- وليّ عندك جايزة..

* * *

في عيد ميلاده الثامن، وبعد أن أطفأوا الشموع، وأخذوا في فتح الهدايا الكثيرة، وسط ضحكات الأهل الطيبة، وحقد جميع الأطفال بكم الهدايا الذي يفتحه (د)..

ذهب (د) لـ (مرورة) وقال لها مرتبكا:

- (مرورة) أنا بحبك وعاوز التجوزك

نظرت له (مرورة) وقالت بفرحة:

- وأنا كمان بحبك وعاوز التجوزك..

ضحك (د)، ثم تركها وذهب ركضًا، ليكمل لعبه مع بقية أصدقائه..

* * *

ويقول (أسامة) بأسها:

- قربنا..



قالت له وهي تستند على السور:

- ارغي..

نظر لها (أ) لحظات.. بدأت الثقة تغزوه قليلا.. استرجع ذكريات ألفاها بعيدا منذ أمد، كي يعود ذلك الشخص الذي كان يجد في يوم قيمة ما في الحياة.. عندما كان هناك مذاق لكل شيء..

عندما كان هناك غدا!..

أخرج علبة سجائرة ببطء، وأخرج منها سيجارة ليشعلها بهدوء، متعمدا أن يجعلها تنتظر قليلا.. ثم أخذ نفسا عميقا، يهدئ به كل ما يعتمل في قلبه من خفقات..

استند على السور جانبها، وجلس عليه، وقال بابتسامة وهو ينظر أمامه، وليس لها:

- أنتِ قدامك حل من الاثنين..

ورفع إصبعًا وهو يقول:

- يا إما تحكي ايه الجلو والحالة العجيبة دي..

نظرت له بتحدٍ مبتسمة وقالت:

- يا إما..؟

رفع حاجبه في ثقة وقال:

- يا إما مش هاحضنك تاني..

ضحكت من قلبها وهي تنظر للسما، ثم نظرت له قائلة بسخرية:

- طب هددني بحاجة عليها القيمة طيب!..

مز كتفه بهدوء، وقال ناظرا لعينيها مباشرة:

- ده اللي عندي..

نظرت له نظرة طويلة، تتجول فيها جميع المعاني بحرية تامة.. تلك فتاة عيناها تفضح كل شيء فيها، وهذا ما يزيد غموضها.. أنها تفعل دائما عكس ما تقوله عيناها!..

أشارت لباب السطح، وقالت في إشارة ضمنية أنها راق لها التحدي:

- أنا عايشة في الشقة اللي قدام السطح دي.. باظبط البواب عشان يخلي مفتاحه معايا.. الشقة ضيقة جدا.. بتختق فيها، فبطلع هنا.. وأعيش براحتي بـ "مودي" ومزيكتي..

ثم قالت بسرعة:

- أنا زهقت.. تعالي نعمل حاجة ثانية..

توقع هروبها السريع هذا، فابتسم قائلا:

- ماشي.. تعالي نعمل حاجة ثانية..

نظرت له في حماس، فنظر لها نظرة طويلة..

هناك أشياء في الحياة، مهما طال عمرها، قصيرة..

وهناك أشياء، مهما قصر عمرها.. مؤبدة..

وتلك فتاة، مهما طال عمره معها، من عشقه لها، سيشعر أن الحياة

قصيرة.. وسيموت سريعاً!..

قال بأسياً، وعيناه تنظر لها بعشق:

- تعالي نتجوز..

اتسعت عينها في ذهول حقيقي، لتلك الجدية التي نطق بها كلمته.. ثم ضحكت وقالت، وقد ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفثيها:

- يابن المجنونة..

لم يضحك، فظلت تنظر له، متوقعة منه أن يتراجع أو أن يقول إنه كان يمزح، لكنه قال بصوته العميق:

- ليه لا؟

نظرت له لحظات، ليرد القدر عليه فجأة..

ضرب جرس هاتفه المحمول، فانتفض ونظر للهاتف، ليجد ذلك الاسم السخيف، الذي طالما طلبت منه أن يغيره، ودارت بسببه مشاكل كثيرة، لأنه ليس رومانسيا..
«سلمى فودافون».



«أنت واخذ بنج.. صح؟»

قالتها (دنيا) متمجبة، ليقول (ب)، كأنها يريد أن يرتاح من ذلك الثقل الذي على قلبه:

- احنا اصحاب بقائنا ٣ سنين.. يعني من ٣ اعدادي!.. انت طول عمرك شايفاني صاحب جدع وواد راجل زي مايتقولي.. وانا والله فعلاً

كنت صديق ونيتي صداقة.. بس من سنة واحدة فجأة بقيت كل حاجة..
ما بقتش عارف أفكر غير فيك.. أنا فضلت ساكت كل ده عشان م الآخر انا
حثة عيل ما ينفعش أحب.. بس..
وأخذ نفسا عميقا وهو يقول:

- أنا بحبك.. بحبك قوي كمان.. بحب ضحكك لما بتكرمشي مناخرك
كده.. بحب لما بترتبكي شوية فتمسكي خصلة معينة من شعرك وتلفيها
حوالين صباعك.. بحب هزارك معايا اللي مش بتهزريه لأي حد.. بحب
جدعتك ووقفك معايا في كل زعلة.. بحب أنك ما بتروحيش لأي حد في
الدنيا غيري لما بتكوني متضايقة.. بحب فيك.. كل حاجة.. أنا ما تعلمتش
أصلا يعني ايه أحب غير على اديك..

وصمت لحظات، لسمع صوت نفسها، ويتأكد من أنها مازالت حية
وأكمل:

- وما فيش ضغط عليك.. مش عشان أنا عيان يعني تقولي آه.. أنا باقول
لك بس عشان كان لازم أقول لك.. لأنني مش عارف.. مش عارف أنا
هاطلع من المستشفى حاسس بايه.. بس كل اللي أعرفه.. أنا مش عاوز
أعيش غير عشان أشوف وشك ثاني..

صمت فترة.. وعندما لم يجد إلا صوت نفسها قال:
- ايه رأيك؟..

كل ثانية من صمتها شعر أنها عمر كامل.. نصبت يدها عرقا على هاتفه،
لكنه لم يبال.. لماذا البوح بالمشاعر شيء بهذا الصعوبة.. لماذا؟..
تنحنحت هي، فانتعش قلبه، وقالت بصوت خفيض:
- أنا..

«عفوا.. لقد نفذ رصيدكم»..

قاطعته ذلك الصوت، فانتفض جسده ونظر للهاتف بغيظ شديد... وهم بأن يلقيه من الشرفة، لكن تذكر أنها قد تكلمه ثانية.. لكن ماذا لو لم تتكلم؟!.. منذ أن دخل تلك المستشفى وهو يتأقلم على ذلك الهدوء والتأمل في كل شيء، حتى يستعد لكل شيء سيحدث له.. كيف أعادته هي في ثانية واحدة لذلك المراهق، الذي يشعر أن حياته كلها تعتمد على ردها؟.. ثم ذلك الهاتف اللعين.. لماذا لم تتصل؟..

«أخذ يابني»

قالها الصوت من خلفه، لينظر بسرعة، فيجد ذلك الرجل «المدخن» يمد يده له بمحموله، ويتبسم قائلاً:

- كلمها يابني.. دا انت من كتر ماصوتك عالي خليت الدور كله مستني ردها!..

كاد أن يسأله «تفتكر هتوافق»، ثم استعاد عقله لحظات، وهو يأخذ الهاتف مغمغماً بكلمات شكر مبهمه، وطلب رقمها بسرعة شديدة.. ليُدوي ذلك الجرس الثابت الممل.. حتى سمع صوتها الحنون يقول بتساؤل:

- آلو؟..

قال بسرعة:

- أبوة يا (دنيا).. أنا باكملك من رقم راجل معايا في المستشفى بيطلع لي في أوقات غريبة كده..

تذكر أن الرجل ما زال واقفاً خلفه، فالتفت له معتذراً، ليجده أشعل سيجارة وابتسم، مشيراً له أنه لا شيء.. قالت وقد هدأ صوتها قليلاً:

- طيب..

صمتت، فلم يجد بداً إلا أن يصمت هو أيضاً فترة طالت، حتى تنحنح الرجل خلفهما، في علامة أنه أيضاً لديه رصيد وسينفذ بالتأكيد.. فقال (ب) وقد بدأ اليأس يغزوه:

- أنا حمار صعب؟.. ماكنش ينفع أقول.. انا كده بوظت كل حا..
- أنا بحبك..

قاطعته هي، ليصمت هو تماماً غير مصدق، فأكملت هي:

- أنا بحبك من تالته اعدادي.. يا حمار..

قال هو بابتسامة، كادت أن تلامس أذنه:

.. طيب ماتقوليش حمار لراجلك طيب.. عيب..

ضحكت، فضحك هو معها..

ونسي للحظات كل شيء عن ألمه..

بل نسي كل شيء عن دنياه..

* * *

كانت مازالت مرتبكة، فظلت صامته تقرأ آخر شيء كتبه..

«.. وليّ عندك جائزة..»

ظل هو منتظراً بهدوء شديد يستفزها، كأنها يعلم أنها لن تغلق.. يقول الشيء وينتظر رده.. يخبرها بأسلوب خبيث أنها يجب أن ترد، حتى لا تجرؤ حتى أن تتهمه بأنه السبب.. كالشيطان بالضبط.. يغريك بالشيء، لكن لا بد أن تفعله بنفسك.. لا بد أن تذهب بتلك القدم المسحورة إلى الخطيئة..
الإرادة الحرة.. لعنة كل الخطايا!..

كتبت، وهي تعلم أنها استسلمت تماما لقواعده، وأصبح هو، بأرقى أسلوب في الدنيا، سيدها..

إن طلب أي شيء في الدنيا مستغله، حتى لو كان ضد كل مبدأ تعلمته في الحياة..

إن من عرف كل ذلك عنها من مجرد ساعتين، لم يحدثها فيها إلا قليلا، فهو يستحق تاجها..

« - إيه الجائزة اللي أنت عايزها؟.. »

كتب بعد فترة صمت:

- أنك تحاولي تنبسطي من قلبك.. تبطلي التمثيلية اللي انت عايشها دي وتعرفي نفسك بجدة..

نظرت للكلام بدهشة، ثم ارتفع حاجباها في استنكار، عندما قرأت ما كتبه بعدها..

- وتعملي لي ديليت وبلوك.. عشان أنت عمرك ما هتبقى خاينة.. ومش انا اللي هيزود الوجة ده عليك بقية عمرك..

وليكمل بهدوء الدنيا..

- سلام.. :)

كتبت بسرعة، قبل أن ينصرف:

- انت مجنون؟.. أنت بتعمل في كده ليه؟.. دا انا كنت هاوافق على أي حاجة هنطلبها!..

صريحة قليلا؟.. قالتها لنفسها، لكنها لم تلبث أن قالت: وهو ينفع معاه كذب؟!..

كتبت بسرعة:

- أنت فين؟

كتب بعد فترة صمت، كادت أن تحطم الشاشة فيها:

- متأكدة؟.. مش هتندمي؟

بالضبط..

كالشيطان..

كتبت بهدوء وثقة تلك المرة:

- مش هاندم..

ليكتب هو:

- مش قلت لك «هاخليكي تحبيني؟»..

ولم تستطع هي أن تبسم.. وقد بدأت في الندم بالفعل..

* * *

رد على الهاتف بضيق:

- أيوه يا (سلمى)؟

قالت (سلمى) بقلق:

- أنت فين كل ده؟.. أنت قلت لي إنك داخل الحمام وراجع ا..

عاد واقعه إليه، بملله وسخافته ورقابته وموته، في ثواني..

قال بصوت ملول:

- معلش.. أصلي اتخنت فتزلت أجيب سجايير..

ارتفع حاجبا فتاة السطح في سخرية، ونظرت للأرض وهي تهز رأسها ضاحكة، فنظر لها (أ) بضيق و(سلمى) تقول:

- مخنوق من إيه يا حبيبي؟..

قال بضيق صدره معها.. بل بضيق صدره مع كل ماذكره صوتها به:

- هو أنا يعني عمري قلت لك أنا مخنوق من إيه؟.. مش بتزهقي من السؤال ده؟..

ضحكت هي في براءة، وقالت:

- هو أنت مش بتجنبي أصلا عشان مايزهقش؟.. عمري ما هازهق م السؤال.. ولا هازهق من ردك..

قال محاولا أن يبدو هادئا:

- ممكن بس تسيبيني شوية لوحدي.. أنا لما أهذا هاكلملك..

صمتت لحظات، ثم قالت بخفوت:

- طب ماينفعش تحاول تبقى معايا شوية.. يمكن أريحك..

لم يرد، وهو ينظر للسماء.. فقالت هي بخنان:

- أصل أنت وحشتني قوي..

شعر بخنجر كسول، يذبح في قلبه بسخافة غير طبيعية.. ذلك الألم المصاحب دائما لحبها غير المشروط.. قال بصوت بارد:

- أنا قلت لك سبيني لوحدي شوية.. ماتتعييش قلبي معاك..

صمتت لحظات، عرف تماما كم تنألم فيها، ثم قالت بصوت مرح، يعلم تماما أنها تمثله حتى لا تضايقه، فتضاعف ألمه القاتل:

- حاضر يا حبيبي.. خد بالك على نفسك..
صمت، لا يدري ما يقول، وهو ينظر لفتاته التي مازالت تنظر للأرض
مبتسمة.. قال محاولاً أن يبدو لطيفاً:
- وانت كمان خدي بالك على نفسك..
ولم ينتظر ردها، وأغلق الخط..
تأملها، وهو ينظر لتلك الفتاة التي سحرت كل ذرة فيه..
نظرت له وهي تقول بابتسامة جانبية:
- أول راجل يخيب ظني.. كنت باعرف على طول إذا كان وسخ ولا
لا.. بس افكرتك - مش عارفة ليه - نضيف..
لم يرد..
هناك أشياء إن بررناها، أصبحنا في نظر أنفسنا أقل بكثير..
وهو لا يجد أقل مما هو فيه ليهبط له!..
قالت هي:
- مراتك؟..
لم يرد، وإن ابتسم ابتسامة هادئة، تحمل من الحزن ما تحمله.. واتجه لباب
السطح، وبدأ في هبوط السلم.. فانهقد حاجباها في تساؤل، وهي تنظر له
حتى اختفى.. لصمته، وعينه الشاردة.. ومشيته..
ربما لأنها لم تلاحظ حتى الآن طوال هذا الوقت تلك العرجة الخفيفة..
لا تعلم أن تلك العرجة الخفيفة لا تظهر إطلاقاً..
إلا في لحظات فرحه..

أو موته!..

* * *

قال (أسامة) ناظرًا لهم في هدوء:

- المرحلة دي من أسعد المراحل..

نظروا له باستنكار، فأكمل هو دون أن يبالي:

- احنا دلوقتي خالصنا المرحلة الثانية كلها.. مرحلة كلنا شغنا منها كثير قوي في الأفلام والمسلسلات والمسرحيات.. العقدة والمشاعر، بعد كده النهاية.. اللي بتيجي بقى بالجواز في الأفلام العربي.. والبوسة في الأفلام الأجنبي..

سارت ابتسامة خفيفة على أفواههم، ليكمل هو:

- دايا كل المنتجين أو المؤلفين يبقفوا عندها لسبب.. أن خلاص كده كل المشاكل اللي في الدنيا اتحلّت.. البطل بقى مع البطلة.. ودايا بتبقى المشكلة في القيلم أو الرواية ان في سبب مش غلبيهم يبقوا مع بعض.. أو واحد بيفرق بينهم..

ونظر لهم قائلًا بابتسامة:

- بس ضحكوا عليكموا... مافيش حد في قصص الحب بيقف في وش العلاقة.. إلا الاتنين اللي حبوا بعض أصلاً..

ابتسموا، فقال:

- المشكلة عمرها ما كانت في الدنيا أو في أي حاجة.. المشكلة فينا احنا، وازاي بتصرف في العلاقة، وبتمسك ازاى بالناس اللي معانا.. وابتسم في راحة دائمة ما يشعر بها عند انتهاء المرحلة الثانية:

- هنا بقى خلصنا المرحلة الثانية.. هنخش في الجزء اللي مش بيعجي كثير في الأفلام.. العلاقة نفسها بتطوراتها..

رفعت إحدى الطالبات يدها، فقال دون أن ينظر:

- (أ) والي حصل له.. الموافقة مش معناها دايمًا موافقة وفرح وهيصة.. ممكن الموافقة تيجي عشان الرفض!..

نظروا له غير فاهمين.. فأخذ هو نفسًا عميقًا، ناظرًا لهم.. شئ ما يشعره أنهم بدأوا يفقدون اهتمامهم بالموضوع، والتعب بدأ يؤثر عليهم..

مازال هناك أربع ساعات متبقية.. لا بد أن يفعل شيئًا ما جديدًا..

لكنه قرر أن يؤجله للمرحلة التالية..

ابتسم ناظرًا لهم وقال:

- المرحلة الثانية كانت أطول المراحل.. نخش في مرحلة «الحياة بقى لونها بمبي»..

وكتب على السبورة، تحت الكلمة الكبيرة «هيينا»:

- المرحلة الثالثة..



٣- العلاقة

قيل فيما مضى أن الحياة لا تكتمل الا بالحب...
ولكنهم لم يعلمونا شئ عن الاكتمال...

الشقة المظلمة الكثبية ثانية..

نظر (أ) لكل شيء حوله، في تلك الشقة التي ظل عقدا من العمر يعيش فيها وحده..

أغمض عينيه، وهو يقف في منتصف شقته، ولم يسمع إلا صوت موسيقاها، التي كانت تدوي في الساعات الصغيرة في ذلك السطح..

طوال عمره يرتبط عنده كل شيء بالموسيقى.. ذلك السحر الوحيد في الأرض، الذي قاوم كل الأساطير والخرافات والعلم السخيف.. وظل عبر الأزمان على قيد الحياة..

الموسيقى بالنسبة له.. حياة..

الشيء الوحيد الذي يجعله يشعر بشيء ما، بعد كل ما مات بداخله..
والآن.. هي..

شعر بغصّة في قلبه، وهو يتذكر شعرها المتطاير، وحضنها الحنون، الذي .. رغم بساطته .. احتوى عالمه كله..

تمايل بجسده، متذكرا رقصتها معا، ثم لم يلبث أن ابتسم ساخرا، وهو يفتح عينيه وينظر حوله للشقة الميتة، لا يصدق أنه منذ لحظات قليلة كان في عالم آخر تماما..

ضرب جرس هاتفه، قاطعا كل أفكاره، فزم على شفثيه غاضبا وهو ينظر لاسمها، ثم يضغط زر الاستقبال قائلا في ملل:

- مش قلت لك سيبيني لوحدي؟

قالت بصوتها الحنون:

- ما أنا قلقك عليك..

ابتسم في هدوء، رغم كل شيء، فهي تحبه كما لم يحبه أحد من قبل.. ألقى مفاتيحه على الأرض، وهو يتجه للشفرة، التي ترك بها الكمبيوتر الخاص به، ويأخذه ليعود للغرفة. ضبط نفسه ينظر للسطح الذي رآها فيه لأول مرة، فلام نفسه وهو يعود للسريـر ويلقي جسده عليه، ليدرك أنها كانت تتكلم كل ذلك الوقت، بل وتكمل:

- بعدين قلت لها مش هابتفع أقابله خلاص..

سأل في شرود:

- هو مين ده؟

صمتت لحظات، عرف فيها أنها غضبت، لكنها أكملت:

- العريس.. كنت باحكيك عن خناقتي أنا وماما..

كم هي مخلصه، طيبة، رقيقة القلب..

- أنا مش عاوز أكمل..

قالها بهدوء جزاء، ييسمل قبل أن يذبح أضحيته، ليسود صمت طويل، أدرك فيه أنها تستوعب صدمة الكلمة، ثم قالت بصوت، حاولت أن تجعله متعاسكا وصينا:

- ممكن أعرف ليه؟..

فكر قليلا، ثم أشعل سيجارة ونفخ دخانها بقوة، ثم قال ما عرف أنها
لن تفهمه:

- أنتِ مش قد وجمي..

لتقول ما هو متوقع:

- مش فاهمة..

ليقول هو بسفسطائية يعرفها عندما يهرب:

- هي دي المشكلة..

ثم أكمل بهدوء:

- أنت واحدة من أحسن الناس اللي عرفتهم في حياتي.. واحدة بتعرف
ازاي تبقى مخلصه.. بتنسى نفسها تماما مع اللي بتحبه.. واحدة التخلقت
عشان تبقى زوجة مطيعة هادية.. ودي حاجة في الزمن ده صعب قوي ان
الواحد يلقاها.. واحدة أنا عشت كتير قوي عشان أحاول ألقاها..

وأغمض عينيه وهو يكمل:

- أنا طول عمري نفسي أحس اني عادي شوية.. اني ممكن اتجوز واحدة
عادية قوي.. كنت عاوز أحس اني بني آدم طبيعي ولو في حاجة واحدة في
حياتي..

لم يسمع إلا صوت نهنهتها، الذي تحاول أن تكتمه، لكنه لأول مرة منذ
سنين يتكلم، فلم يمنع نفسه:

- أنا اتجوزت قبل كده زي ما أنتِ عارفة.. كنت شاب مجنون قوي..
عاوز كل حاجة تبقى مختلفة.. عاوز الحياة كلها تبقى «بطعم».. زمان وأنا

صغير كنت باقعد أقول لنفسي «ازاي الناس الكبار ييعتبرونا صغيرين وهبل
وساذجين مهما كلمناهم وحاولنا نقتنعهم بالعقل والمنطق؟» .. وعرفت من
فترة صغيرة قوي انهم «بيهرشونا» من حاجة واحدة..

وأكمل بيسمة:

- من نظرة التفاؤل الي في عينا.. من نظرة «أنا الي هاعمل اختلاف»..

جاوبه صمت مطبق، فابتسم قائلاً:

أنت ممكن تشوفيني راجل زبالة قوي.. بس من الآخر.. أنا بعد
جوازتي دي، فضلت أدور على حد عادي.. حد ما يوجعنيش قوي كده..
حد ما يعرفش يرجع أصلاً.. ولا قيتك.. الحاجة الوحيدة المنطقية قوي..
ورضيت بيكي جداً وقلت أخيراً الحياة بدأت تضحك شوية.. هاعيش زي
كل الناس..

وأغمض عينيه ثانية، ليتذكر ضحكة فتاة السطح الهادئة، وشعرها
المتطاير، وصوت تلك الموسيقى التي كانت تحرك كل شيء، وقال:

- ومن عشر دقائق بس.. اكتشفت ان انا مش مكتوب لي أبقي طبيعي..
إن انا واحد طلع برة القطيع من زمن.. لدرجة ان القطيع مش راضي يقبل
بيه تاني..

وأخذ نفساً عميقاً وهو لا يضيره سلعها بعد ذبحها:

- ان الحب ما يتولدش غير من الوجد.. أني لازم أتوجع قوي.. عشان
الحب الحقيقي لما أقابله.. يبقى هو الوحيد الي في الدنيا، يعرف يخفف
الوجد ده.. أو يشيله تماماً من الوجود..

صعدت صوت بكائها أكثر، ليعود هو لنقطة البداية:

- فأنت مش قد وجعي.. بس كده..

أغلقت هي الخط في وجهه، لينظر هو للهاتف بنظرة فارغة.. ها هو ذلك
الأمل في أن تصبح طبيعيا قد ذهب أدراج الحياة.. وها قد قتلت بيديك فتاة
كانت تحب حقاً..

من قال إن الجزار لا يشعر بالشفقة، ولو قليلا، وهو يأخذ روحا ما
بيديه أ..

ضرب جرس شقته، فعقد حاجبيه في استغراب، ونهض متحاملا على
ألمه، ليفتح الباب ببطء.. ليرتجف قلبه رغما عنه..
فقد كانت أمامه، واقفة تنظر حولها بقلق..
وبعين دامعة..

نظر لها بعين استعادت روحها في ثوان.. ونظرت له بعين تسأله ألف
سؤال..

ولدقيقتين كاملتين، ظلا ينظران لبعضهما، وكأنها يدور حوار كامل
مفهوم بينهما..

ثم اندفعت نحوه فجأة، وهي تمسك رأسه بيديها، وتقبله قبلة طويلة..
وتثير معها تلك الموسيقى الهادئة.. موسيقى البيانو.. والكمان.. اللذين
لا يجتمعان إلا في لحظات الألم..
والأمل..



ولأول مرة منذ فترة طويلة يقف (ب) في الشرفة معه أحد..

(دنيا)..

جاءت لتزوره في المستشفى في اليوم التالي، وتفاجئته، ليتسم هو بسعادة بلهاء، وهو ينظر لها، بجسدها الرفيع وعينيها الخضراوتين الواسعتين، ببراءة فتاة في السابعة عشر من العمر.. وتضحك له ضحكة واسعة.. ليضحك هو في سعادة حقيقية، وهو يراها أمام باب غرفته المفتوح، لتدخل لحظتها المريضة حاملة الحقنة الشرجية معها، فانتفض وهو يشير للمريضة أن تنصرف بكلتي يديه، فضحكت المريضة وهي تغمز له، ثم تنصرف بهدوء..

وقفت (دنيا) تنظر لها ببلاهة، فتهض من فرائشه وهو يتجه نحوها، فقالت برقة:

- خليك على السرير.. أنا ماجيتش عشان اتعبك..

قال وهو يتسم:

- ايه يا بنتي الرقة دي.. فين أيام «يشفي الكلاب ويضرك!»

ضحكت هي في سعادة، وهما يخرجان للشرفة الواسعة..

شعر بدقات حقيقية في قلبه، دقات لا يعلم مصدرها.. لكنه يعلم أنه سيذكرها طوال عمره..

أول دقات حقيقية..

وقف بجانبها، لأول مرة لا يعرف ماذا يقول.. تلك فتاة كانت صديقه لمدة ثلاث سنوات، ويأتي الآن ولا يعرف ماذا يقول!.. نظر لعينيها الخضراوتين القاتلتين، وقال بصوت هادئ:

- (دنيا).. وحشتي..

ليقاطعه صوت الرجل (المدخن) وهو يقول بسعادة حقيقية:

- الله يسهله..

انتفض جسده في انزعاج، في حين التفتت (دنيا) ضاحكة، و(ب) يقول:

- أحب أعرفك بالرجل الي كلمتك من تليفونه امبارح..

وقف الرجل خلفها، في ابتسامة وهو يمد يده ليسلم على (دنيا) قائلاً:

- (عبد الحميد صالح).. محاسب..

سلمت عليه (دنيا) بابتسامة خجولة، فقال هو بسرعة:

- أنا بس حبيت اجي أتعرف على البنت الي دوخت الواد الكئيب الي

قارفنا ده..

نظر له (ب) بغضب، في حين رفعت (دنيا) حاجبيها في دهشة حقيقية، وهي تسأل ضاحكة:

- كئيب ازاي بس؟..

قال (عبد الحميد) بسخرية:

- بيقعد ليل نهار في نفس المكان ده.. يبص على النيل ومايكلمش حد..

مايهزرش مع حد.. ماحدش بيزوره.. وكل ماحد يكلمه يقفل معاه في الكلام.. ومش راضي يقول لحد هو عيان بأيه ولا جي هناليه..

ثم أكمل بفضول حقيقي:

- هو عنده ايه صحيح.. أصله موهي المرضات أنهم مايقولوش..

لدرجة أني افتكرتها حاجة عيب لا سمح الله..

قالها وضحك في سعادة، في حين نظرت (دنيا) للأرض بخجل،

وليتدخل (ب) بسرعة، وابتأ على كتف الرجل قائلاً:

- يلا يا باشا.. اتشرفنا بمعرفتك.. وانبسطة قوي لما قلت لي زمان
«مالكش دعوة بحد»..

نظر له الرجل لحظات غير فاهم، ثم لم يلبث أن أدرك، فابتسم قائلاً
لـ(دنيا):

- انا اتشرفت بمعرفتك.. وربنا يخليكم لبعض..

وانصرف مسرعاً، لتنظر (دنيا) لـ(ب) لائمة وتقول:

- كنت قليل الذوق معاه قوي..

لم يهتم، وهو ينظر لعينيها قائلاً، وهو يشعر أن روحه تسحب منه:

- بحبك..

احمرت وجتهاها، ونظرت للأرض، ثم قالت باسمه:

- خلاص.. يغور الراجل..

ضحك، فضحكت هي معه، ثم نظرت للنيل وقالت بانبيها:

- المنظر من هنا روعة فعلاً..

وأكملت ساخرة:

- هو أنت كنت بتقف هنا وتقول لي الحرية ومش الحرية والطيور؟..

أحب أقول لك إنك مريض يا حبيبي..

شعر بموجة عارمة من الراحة تغمره فجأة عندما سمعها، فقال متسائلاً:

- يا ايه؟..

نظرت له بخجل، وقالت بيسمة:

- مش هاقولها ثاني..

مد يده ليحتوي يدها، التي تجمدت في الأول للحظات، ثم لم تلبث أن استكانت داخل يده، وهي تقول بصوت هامس:

- انت مجنون..

لم يرد عليها، وهو يتأمل ذلك الشعور بالراحة والسكينة الذي يغمره وينسيه كل الآلام، في لحظات لم يشعر مثلها في حياته..

أخرجت من حقيبتها فجأة علبة مغلقة، فنظر لها في تعجب، لتبتسم هي في سعادة وتفتحها له بسرعة، وتعطيه ما بداخلها...

امسك تلك الورقة الملفوفة، وفردا بعناية، واتسعت عيناه في دهشة..

كانت رسمة له على الطريقة الكاريكاتيرية، وجهه كبير وجسد صغير، ويركض في ملعب ما معه الكرة، تخرج منه باللونة الكلام المميزة في الكاريكاتير ومكتوب فيها «يا ترى احساس الكورة ايه واحنا بندحرجهما كده؟»...

ومكتوب في أسفل الورقة «كلنا مستنيينك ترجع»...

ساد صمت طال، فجأة لم يعد النيل بذلك السحر، ولم يعد يهتم بكل هؤلاء البشر الذين يجلسون حول النيل، ولا بحياتهم.. ذلك الشعور الرائع لا يورثنا إلا الأنانية.. نتخيله كثيرا، ونتمناه طوال الوقت.. لكن أن نشعر به فعلا.. نحتوي تلك السعادة الخاصة لنا فقط.. طرد تلك الأفكار من رأسه.. حتى تأملاته لا يحق لها أن تزعجه في ذلك الوقت..

إنه يجبها..

وكفى!..

التفتت له لحظات، تتأمله بعينيها اللتين يذوب فيهما، ثم تنحنحت بهدوء وقالت:

- مش شايف أنا من حقي دلوقتي أعرف أنت عندك أيه؟.. زمان كنت بتقول لي إنه سر.. وانك مش عاوز تقلق حد.. بس أنا من حقي دلوقتي أنا أقلق..

نظر لها لحظات، محاولا الاحتفاظ باللمحة الرومانسية ولا يفسدها بالمرض، لكنها الآن حبيبتها، ولها حق أن تعرف..

نظر لحظات للأرض، ثم قال بأسها:

- مصممة؟

أومات برأسها أن نعم، وهي تشد على يده تشجعه، فأخذ نفسا عميقا وهو يقول بنفس الابتسامة:

- أنا عندي ورم في ضهري.. ورم يضغط على الأعصاب في مستوى الفقرة الرابعة والخامسة..

نظرت له بخوف حقيقي، وهي تضع يدها على فمها، في حين ابتسم هو في أسف، وقد استعاد جسده كل الآلام دفعة واحدة، وهو ينظر لوجهها الذي يحمل من القلق ما يحمل، فقال هو:

- بس ماتقلقيش يعني.. إن شاء الله هاعمل العملية وأبقى زي الفل..

حاولت أن تبتسم، لكن صعدت في عينيها تلك الدموع رغبا عنها، ثم قالت فجأة:

- أنا بحبك..

وأكملت:

- وأنا ما صدقت لقيتك.. فبلاش تعملها معايا والنبي..

ضحك مداريا كل ما فيه من ألم:

- يا بت ما صدقت لاقيتك ايه؟.. انت ١٧ سنة.. بلاش شغل الأفلام العربي دي..

ضحكت رغما عنها، ثم ضربته في كتفه، ليبتسم قائلاً:

- بتمدي ايدك على راجلك؟.. شُفتِ؟.. عشان سكت على «يا حمار» في الأول مديت ايدك عليّ..

ضحكت أكثر، في حين نظر هو لضحكتها..

وعاد لينسى العالم كله..

* * *

قال (أسامة) بهدوء:

- احنا هنا لازم نعرف..

فاطمته سيدة كبيرة في السن قليلاً، فائلة في تركيز:

- هشششش.. استنى لما نخلص..

نظر لها لحظات مندهشاً، في حين ضحك الطلاب ضحكات خافتة، فابتسم هو قائلاً:

- ماشي.. نكمل..

* * *

ظلت (علا) تسير في ذلك المول التجاري الكبير، تنظر لكل شيء بشروء مع صديقتها..

مر أسبوع كامل، و(ج) يحدثها في الهاتف لمدة ساعات..

لا تعلم لماذا.. لكن كلامهما لا ينتهي..

ولاحظت طوال الوقت أنه لا يأتي بسيرة (أحمد) على الإطلاق.. لا يمدح فيه ولا يذم فيه.. يحدثها عنها هي فقط.. ويحكى عن نفسه قليلا..

تشعر طوال الوقت أنها في رمال ناعمة.. تسحبها ببطء لأسفل.. وكلها قاومت، غرقت أكثر..

وذلك السؤال السخيف الذي لا تطيقه..

كيف فعل بها كل هذا؟..

هل هي خائنة؟..

كلما تسأله ذلك السؤال، يرد عليها برد يجعلها تشعر براحة غير طبيعية:

- الخيانة هي أنك تسببي حاجة صبح وتعملي حاجة غلط.. فأنت

مايتخونيش (أحمد).. أنت ختتيني أنا لأنك ارتبطت بأي حد قبلي!..

وماحدث بيقل على اللي بيسبب ذنب ويرجع لربنا أنه خان الشيطان!

مثلا.. حتى لو فضل يعمل الذنب ده مؤقتا.. مسيره يتوب..

وتصدقها!..

تتمعجب كيف تصدقه.. لكن كلامه يلمس في قلبها راحة غير طبيعية..

لم يحبها أحد كما يحبها هو..

بل إنه يجعلها تذوب كل يوم فيه أكثر..

نظرت لصديقتها، التي تعرف كل شيء، فابتسمت لها قائلة:
 - كلميه خليه ييجي.. لما نشوف آخر جنانك ده ايه..
 لم تنتظر لكي تكمل صديقتها كلامها، وطلبت على الفور، لتسمع صوته
 الدافئ، الذي يجعلها تشعر براحة غير طبيعية:
 - حبيب قلبي..
 قالت بسرعة، قبل أن تراجع في قرارها:
 - أنا عاوزة أشوفك..
 صمت لحظات، ثم قال بهدوء:
 - مافيش مشاكل.. فين وامتي؟
 قالت له:
 - دلوقتي.. أنا في (سيتي ستارز)..
 قال لها مندهشا:
 - انت مش شايفة المطر اللي برة عامل ازاي؟.. دي بتمطر تلجأ
 لم تكن تعرف تلك المعلومة، فقالت:
 - خلاص بلاش..
 - لا خلاص أنا جي..
 قالها في حماس مفاجئ، وأغلق الخط، لتتظر هي إلى صديقتها، وتقول
 بقلق:
 - ده بيقول إنه جي.. وبيقول إن الدنيا بتمطر برة..

صفقت صديقتها بجذل وقالت:

- الله.. أنا بعشق المطر..

نظرت لها (علا) في ابتسامة.. وأخذتا تتمشيان قليلا، حتى استسلمت لصديقتها، التي كانت تلح أن تخرج في المطر قليلا.. لا تعلم أن (علا) تعشق المطر أيضا، لكن لأسباب لا يعلمها مخلوق، حتى (ج) شخصا..

اقتربتا من البوابة في هدوء، ليرتفع حاجبا (علا) في قلق وقالت:

- استني يا (منى).. المطرة دي مرعبة فعلا..

شعرت بقلق غريب على (ج)، وهي لا تعلم كيف سيأتي في هذا الجو العاصف، وقررت أن تكلمه ثانية تجربته ألا يأتي، لكن لم تلبث أن اتسعت عينها في دهشة، وهي تراه من خلال البوابة، وهو يمشي بهدوء في الشارع رافعا ذراعيه لأعلى، وقد ابتل من رأسه حتى أخمص قدميه..

ويبتسم..

ابتسامة سعادة صافية..

قالت (منى) في تعجب:

- هو في إيه؟

أشارت (علا) للخارج على (ج)..

كان في عالم آخر فعلا..

نظر للبوابة، فوجدهما واقفتين خلف الزجاج، فاستعت ابتسامته، وأشار لها بحماس أن تأتيا إليه، فضحكت (علا) مشيرة له بعلامة الجنون، وأشارت له أن يأتي هو.. ليقف هو رافعا حاجبيه في عناد.. ثم عقد ذراعيه وهو يقف مكانه، وأشار لها أنه لن يأتي، ويجب أن تأتي هي له..

ضحكت (منى) في بلاهة وهي تقول:

- ده مجنون..

نظرت (علا) له، وقالت في شرود غريب وابتسامة:

- هو مش مجنون..

وأكملت وهي تتحرك خارجة:

- هو «حالة».. عمري ما عرفت زيتها..

اتسعت عينا (منى) في دهشة حقيقية، في حين ظلت (علا) تنظر له وهي تخرج من البوابة، في هذا الجو العاصف والأمطار الشديدة..

لكنها لم تشعر بشيء..

ظلت تنظر لعينيها، التي أبعدتها عن كل ما يحدث حولها، وهي تقترب منها ولا ترغب إلا في أن تقترب أكثر..

وقفت أمامه، وقالت بصوت عالٍ، لكي تغلب على صوت المطر:

- أديني جيت يا سيدي.. عاوز إيه مني؟

مد يديه فجأة، وأمسك وسطها، ثم أمسك يدها ورفعها قليلا، وبدأ في الرقص معها.. لتضحك هي بشدة، والمطر يفمرهما..

قال هو بصوت عالٍ:

- مبسوفة؟

صرخت هي أيضا:

- أنا باعشقك يا بن اللذين..

توقف عن الرقص قليلا وهو يتسهم، ثم أمسك بيدها مبتعدا، فقالت
هي بدهشة:

- أنت رايع فين؟..

توقف، وهو ينظر لها نظرة تخللت إلى أعماقها:

- ولا أعرف.. بس مش هاعمي غير أني أبقى معاك!..

صمتت ناظرة له، لا تدري ماذا تقول، ثم استسلمت تماما ليده، التي
تسحبها كالعتاد دون مقاومة حقيقة..

ناسية تماما (منى)، التي ظلت خلف البوابة تلوح لها بكلتي يديها..
ولكن لا حياة لمن تنادي..

* * *

نظر (د) لـ (مروة)، لا تدري ماذا يفعل..

لقد أخبرها أنه يحبها.. وكان المفترض - كما هو معتاد - أن ينتهي الموضوع
عند هذا الحد، أو ينتهي الفيلم عند هذا الحد..

كان يعشق فيلم كارتون اسمه (اناستاسيا).. وكان هذا نهايته..

كانت تجلس أمامه، تلعب بلعبة ولا تتحدث، ثم قالت:

- أنا زهقانة قوي..

قال هو ببراءة:

أنا بابا جاب (أتاري) جديد.. ومش بحب أي حد يلعب عليه
غيري.. تلعب معايا؟

نظرت له بحماس، ثم قالت:

- آه نفسي العيب يه.. عشان خاطري..

ابتسم لأنه أسعدها، وهو يقول:

- يلا بينا..

ركضا خارج شقة (مروة)، متجهين لشقته، التي وجد بابها مفتوحا،
فدخلوا إليها، لیسعما صراخا عاليا، جعلهما يتوقفان في خوف..

كان صوت صراخ أم (مروة)..

خرجت أم (مروة) مسرعة من غرفة أبيه وأمه، ونظرت لها في آخر
الطرفة، بذلك الخوف البادي على أعينها، فذهبت لها مسرعة وهي تقول
بصرامة، رغم عينيها المحمرة والارتباك البادي عليها:

- (مروة).. خديه وروحوا شقتنا العبوا مع بعض..

قالت (مروة) باعتراض:

- بس احنا عاوزين نلعب بال(أتاري)..

قالت أمها بصرامة:

- (مروة).. قلت لك..

قطعت كلامها، عندما تسلل (د) من جانبها، راكضا متجها نحو غرفة
أبيه وأمه، وحاولت أن تلحقه، لكنه كان قد دخل الغرفة وهو يصيح:

- ماما أنا جيب..

انعقد لسانه، وهو يحرق في هذا الكم الهائل من الدماء، الذي يملأ
الأرض والسرير، ويخرج من معصم أمه، التي رقدت على السرير بلا
حرك.. جانبها سكين ممتلئ بنفس الدماء..

وكان قد بلغ من العمر ما يجعله يدرك أن أمه لم تعد معه..
لقد ذهبت لريها..

* * *

التفت ذراعيها حول عنق (أ) في حنان، خلق لكي يلمسه..
هل بعد كل ما حدث لك.. بعد كل تلك التساؤلات.. أصبح هناك
منطق ما؟..

هل استعادت الدنيا رشدها أخيراً؟..
هل تبتسم من قلبك الآن حقاً؟..
ما تلك الليلة؟..

بدأتها في شرفتك، تحاول أن تشعر أي شيء.. تحاول أن تسقط، فلا
يسمع عنك أحد.. تنهي ذلك الألم المتواصل السخيف.. تنهي كل شيء في
نوان معدودة.. فينتهي بك الحال بين ذراعيها؟..
قال لها بهدوء:

- هو أنا كان لازم أموت عشان أقابلك؟..
قالت مغمضة العينين، بابتسامة هادئة:

- لا انت كنت لازم تموت عشان تعرف تلاقى في نفسك براح أنك
تعيش!..

كانا على الفراش عاريين تماماً.. فهم بأن يرفع الغطاء على جسديهما، كما
يرى في كل الأفلام، فمنعته بيدها مبتسمة وقالت بهدوء:
- أنا حرة كده..

واستعادت نشاطها فجأة، فتقلبت من على الفراش، ثم وقفت أمامه
راضعة يدها على وسطها قائلة:

- ايه رأيك في؟..

تلاقت عيناها بعينيها في نظرة طويلة، ثم سقطت عيناها لتأمل كل ذرة
في جسدها ببطء الدنيا كله.. لتشعر هي بعينيها تدفن كل ذرة في جسدها..
احمرت وجنتاها خجلا، رغم كل ما فعلاه معا.. وفهم هو كل شيء..

أن تفعل المرأة كل شيء في الظلام، وتداري نفسها، حتى ولو كانت
متزوجة، فهي تفعل شيئا غريزيا بحثا.. بل ربما أجبرت عليه أيضا..

لكن أن تسمح لك امرأة أن ترى كل شيء فيها.. فهو شيء روحاني
بحث..

فهي تسمح لك بأن تستمع بها..

تخبرك أن هذا الجسد ملكك..

فهنا لك به..

ابتسم وهو يفتح ذراعيه، لتضحك هي بسعادة، وتركض مسرعة
لتدخل بين ذراعيه في عشق..

قال، وابتسامة بلهاء تملأ كيانه كله:

- أنت ازاى صح قوي كده؟.. ازاى مضبوطة قوي كده؟..

ضحكت هي في سعادة حقيقية، فقال هو معتدلا:

- أنت رجعتيلي ليه؟..

تأملته بعينيها لحظات، ثم قالت بصوت خفيض:

- ماعرفش..

ابتسم في ادراك، فأكملت هي ساخرة:

- خفت فعلا ما تخفينش ثاني..

قال وهو يضحك:

- مش هتنبلي تقولي لي اسمك بقي؟..

نظرت له لحظات، ثم قالت باسمه:

- اسمي (رؤى)..

مرر يديه على شعرها، ثم ابتسم قائلاً بحنان:

- طبعي أنه يبقى اسمك.. عشان أنا باعشقه..

ثم أغمض عينيه وهو ينام على ظهره ثانية:

- أنا حتى سميت بنتي نفس الاسم..

شعرت بألم لا تدري مصدره، وهي تقول بقلق مفاجئ:

- يعني أنت متجوز فعلاً؟

نظر لها مبتسماً، وهو يرى ذلك القلق والحزن في عينيها، ليقول مطمئناً:

- أنا مطلق.. انجوزت وأنا عيل صغير.. جوازة فضلت مستمرة لمدة

ستين.. حملت فيهم مراتي بينونة سمينها (رؤى) من قبل ما تتولد..

عاشت ٦ ثواني بعد ما نزلت من بطن مامتها..

وابتسم ابتسامة سعادة عميقة وهو يقول:

- بعد كده ربنا اكتشف أنه ناقصه ملاك.. فأخذها مني..

ثم ضحك وعيناه شاردتان تماما:

- واكيد هي عملاهم قلبان في الجنة دلوقتي.. لأنها متطلع شقية زيي..
ارتفع حاجباها في شفقة، وابتسمت ابتسامة حنونة قائلة:
.. أنا آسفة..

صمت لحظات طويلة، ثم قال ناظرا لها في ابتسامة مكملًا قصته:

- بعد ما الطفلة ماتت.. بعدنا أنا ومراتي قوي.. هي شايفة أنا السبب
مش عارف ليه.. وأنا شايف انها السبب برضه مش عارف ليه.. مع أنا كنت
بحبها قوي.. بحبها الحب بتاع الأفلام الرومانسية ده.. بس بعد ما الطفلة
ماتت والمشاكل اللي كانت أصلا موجودة.. كل حاجة ماتت بالراحة..
موت بطي زي ما بيقلوا.. بعدها هي قررت أنها تسييني.. وأنا وافقت!..
لم تدر ماذا تقول، لكنه ضمها لحضنه أكثر وهو يقول:

- (سلمي) اللي كلمتني في التليفون وأنا معاك دي.. واحدة من أنصف
وأخلص الناس اللي عرفتهم.. عرفتها بعد مراتي بخمس سنين.. كانت كل
حاجة منطقية في الدنيا.. كل حاجة صح على حسب ما بيقلوا..

نظرت لعينه، وقالت في إدراك، كأنها تحفظ ما سيقوله:

- بس أنت الصح مابقاش ينفعك..

قال مشيرا بأصبعه، كأنها يفهمها درسا:

- الصح بتاعهم مابقاش ينفعني..

وأشار لشيء مجهول قائلا:

- ربنا خلقنا نوعين.. نوع يعيش فيها ويموت فيها من غير ما يعرف

أي حاجة عن أي حاجة.. جعلوه فانجعل.. دول الي بتلاقيهم في كل حنة ماييجبوش الجنان ولا بيروحوا حفلات مزىكا ولا بيروحوا يحضروا ماتش كورة حتى.. خرجوا من كلياتهم اشتغلوا واتحوزوا وخلفوا.. دول الي عاوزين الناس كلهم يبقوا زيم.. مجرد مصيف في اسكندرية وكتابين لمصطفى محمود على شرايط قرآن كريم على تفاسير ابن كثير الي مابتتمتحش.. مشاكلهم تافهة ونظرتهم للدنيا على قد عنيتهم بس.. ضيقة قوي.. وفاكرين أنهم غير أي حد والي بيحصل لهم ده عمره ما حصل مع حد.. بيقلدوا كل حاجة وهم مش فاهمين أي حاجة..

دفتت رأسها في صدره وهي تسأله:

- والنوع الثاني؟

صمت لحظات وهو يضمها لصدره، ثم قال بأسا:

- النوع الثاني هو الي بي فهم كل حاجة.. فيفضل تايه وسط بشر مش عارفين يفهموا غير الي حفظوه.. هم دول الي ربنا اختارهم وتحولوا أنبياء.. وبعد ما الأنبياء خلصوا هتلاقى ربنا برضه خلاهم حاجة بتعمل فرق في الدنيا.. سيدنا إبراهيم الي قال أكيد ربنا مش أصنام.. شوفي كام واحد حاربه بقوة غير طييمية عشان يقول كلام ماييخشش دماغهم.. المشكلة ان احنا كلنا عارفين القصص دي.. بس لما حد ييجي يقول كلام غريب عنهم بيكفروه ويحاربوه كأنه شيطان.. اختلفوا ايه عن كفار قريش مش فاهم..

نظرت له نظرة ساخرة، فعرف أنه خرج عن الموضوع، فقال بأسا:

- باختصار.. النوع الثاني هو الي بيعرف يبص على الدنيا من الحرم الي من وراء.. فيشوف كل حاجة على حقيقتها..

ضحكت من جملته، في حين قال هو بأسا:

- ايه حكايتك انت بقى..

نظرت له لحظات، في راحة لم تشعر بها عمرها كله، قالت ساخرة:

- هو احنا هنحرق كروتنا كلها في ليلة واحدة كده؟

ابتسم مجاريا اياها وقال:

- مادام أنا قلت حاجة.. يبقى قولي حاجة قصاها..

قالت بحماس مفاجئ:

- أنا عاوزة أرقص لك..

عرف أنها تهرب، لكنه تركها تنهض وتتجه للكاسيت في آخر الغرفة،
ناظرا لها..



قال (أسامة) ناظرا للسيدة:

- ينفع أنكلم دلوقتي؟

ابتسمت هي في خجل، فقال هو ناظرا لهم:

مرحلة بداية العلاقة عادة ماينفاس محتاجة كلام كثير.. الناس
مبسوطة.. كل واحد بدأ يلاقي تعريف شوية، ويكتشف الشخص اللي معاه
واحدة واحدة.. الموجة بتاعة الحب العاصف اللي في الأول بتهدأ شوية..
كل واحد استهلك طاقة ومشاعر معينة عشان يوصل للي بيحبه.. وكل اللي
يبقى محتاجه بعد ما يوصل.. أنه يريح شوية..

وأكمل وهو يسير بعرض الغرفة، كعادته:

- السعادة اللحظية وبداية ظهور شخصية اللي قدامنا.. استطعنا لكل

حاجة يتتقال ويتحصل في الشخص اللي معانا.. الاتيهار بتاع «ايه ده».. انا مرتبط ومعايا حد ييجيني».. أنك أخيرا لاقيت اللي يترجمك..

وأكمل ناظرا لهم لحظات ثم قال:

- مع أن مابجيش أسترشد بالقصص بتاعتنا وأنا بشرح.. بس (أ) عرف حاجات كثير عن نفسه.. خلّت إنسان سلمي زيه يسبب (سلمي) لمجرد أنه لقي حد «يترجمه».. (ب) عايش بالظبط الحالة بتاعة أن كل حاجة صح وحلوة.. (ج) عرف ازاي بخلي (علا) تتسحب من الدنيا وتسبب كل حاجة عشان تبقى معاه.. و(د).. كان الله في عونته..

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجه السيدة، لكن (أسامة) تجاهلها وقال مكملًا:

- مرحلة العلاقة، رغم أنها قصيرة وما فيهاش كلام كثير، لكن هي واحدة من أهم المراحل.. لأنها الهدف لأي اثنين ييجبوا بعض.. هي النهاية بالنسبة للناس كثير.. اللي ماحدش فيهم يفكر «ايه اللي هيحصل بعد كده».. ويتبقى صدمة لمعظم الناس. احنا دلوقتي وصلنا لقمة الجبل.. لقمة منحني المشاعر.. وزى ماكلنا عارفين القاعدة الثابتة.. ايه اللي بييجي بعد القمة؟..

ليردوا هم بصوت أطربه:

- القاع..

نظر لهم بفرحة خفية، ثم انجبه للسبورة البيضاء، وكتب فيها تحت كلمة هيتا:

- المرحلة الرابعة..



٤- الإدراك

قيل فيما مضى أن الحب عادة ما يصاحبه الألم...
لم يعرفوا أن البشر هم الجنة!

نظر (أسامة) لهم لحظات بعد كتابته على السبورة، يتأمل وجوههم المتعبة ثم قال:

- تحبوا ناخذ راحة؟..

أوماوا برؤسهم أن نعم في إرهاق، فابتسم هو وذهب ليجلس على مقعده، ويرفع قدميه في هدوء على المكتب صامتاً، في حين بدأت أجسادهم ترتاح على المقاعد، ووقف بعضهم ليفرد قدميه قليلاً، وخرج البعض ليأتي بشيء يشربه أو يأكله..

قال (أسامة) ناظراً للطلبة:

- ايه رأيكم في المحاضرة لحد دلوقتي؟..

أوماوا برؤسهم بمعنى «جيدة»، في حين قالت إحدى الطالبات:

- هي حلوة.. بس أنا مش عارفة أنت عاوز توصلنا لآيه؟.. الموضوع شخصي قوي في القصص اللي احنا بنقراها.. انا افكرت ان احنا هناخد معلومات.. نعمل ايه ومانعملش ايه.. (سلمى) دي مثلاً واحدة عملت اللي عليها في كل حاجة، ومع ذلك فشلت.. ايه ذنبها في (أ) وشخصيته.. هي حبته وخلاص.. و(أحمد).. (علا) راحت لواحد تاني خالص ويتخونه.. ذنبه آيه؟..

ابتسم (أسامة) في هدوء، وقال بهدوء كماداته:

- تقدرني تتوقعي ايه في اللي جي؟.. مستنية ايه اللي يحصل؟..
رفع طالب يبدو كبيرا في السن يده، فضحك (أسامة) قائلا ههدوه:
- مش أنت والنبي.. مش كل محاضرة ليّ تعمل كده..
التفت رؤوس الطلاب لذلك الطالب المبتسم، الذي أنزل يده ثانيا، في
حين قالت الفتاة وقد بدأ بعض الطلاب ينجذبون للحوار:
- مش عارفة.. بس اهتمامي كله بالقصص مش بالمحاضرة ذات نفسها،
وده في رأيي عيب كبير في المحاضرة.. متوقعة أن المرحلة اللي جاية كلها
هتبقى عبارة عن الزهق اللي يحصل بعد الارتباط.. أو بداية ظهور عيوب
الشخصيات.. بس..
قطعت كلامها في حيرة، فنظر لها (أسامة) بتركيز، فأكملت:
- عندي إحساس ان كل حاجة موصولة ببعضها.. في خيط مش عارفة
أمسكه.. في حاجة غريبة مش عارفة افهمها..
قال (أسامة) مبتسما:
- كويس.. معنى كده أنك بدأت تحسي بيها..
نظروا له في تساؤل، فأكمل مشيرا للسبورة:
- بقوة حضور الـ(هيبتا)..
ونفض مكعلا:

- اللي فاكّر أن القصص هي اللي عجباه.. مش فاهم أن البطل الحقيقي
في كل ده هو الـ(هيبتا).. ازاي كل حاجة في القصص مختلفة، وفي نفس
الوقت شبه بعضها.. احنا كلنا كده.. مهما كانت قصصكم مختلفة عن اللي في
المحاضرة بتاعتنا، كلنا بنبقى شبه بعض في المراحل دي كلها.. كل واحد فينا

ماينساش أول مرة شاف نصه الثاني.. ماينساش الحاجات المجنونة اللي عملها معا.. ازاي حتى الوجد بيبقى موجود.. كلنا أصلا بنلف وندور حوالين الوجد..

ثم صمت، كأنها يمنع نفسه عن الكلام، ثم قال:

- طب ليه نستعجل.. خلينا نشوف..

ثم صمت لحظات - كالمعتاد - لتأتي الكلمة بالتأثير المطلوب:

- أو.. نحس!.

ونظر للحضور، الذي اكتمل بعد فترة الراحة، وقال:

- يلا بينا..



أغمض (أ) عينيه في هدوء، وهو يتهايل برأسه يمينا ويسارا على إيقاع الأغنية..

«ده الهوى العطشان.. في قلبي بيندهك..

يا أرق من نسمة.. وأجل من ملك..»

تشدو بها العبقريّة (أم كلثوم).. على ألحان الرائع (بليغ حمدي)، الذي أبدع فيها.. هل يمكن أن يكون (بليغ) في غرفته المظلمة، ومعه ذلك العود الشهير، يلحن تلك الأغنية.. يفكر في تلك اللحظة التي تعيشها الآن؟.. يصفها بفرحها وشجنها وروعها؟.. دائما ما يذهب بك خيالك إلى المستحيل.. ولكن لم لا؟.. أليس المستحيل من أساسه.. خلق لك؟..

فتح عينيه ليراها، وهو يشعر - مذهولا - أن تلك اللحظات القصيرة التي أغمض فيها عينيه.. افتقدتها حقا..

كانت قد اختارت قميصا من دولابه وارثته، لتمثل في أروع حالاتها..
نظر لها وهي تتراقص على الأنغام.. على الإيقاع..
تراقص على «الحالة»..

كيف تخلق تلك «الحالة» التي لا يفهمها.. فعلتها على السطح، وتفعّلها الآن!.. وهل لا يفهم الحالة فقط؟ إنه لا يفهم شيئا.. إنه مثل من فتح عينيه على الدنيا ولم يجد سواها أمامه.. يريد أن يتعلم منها كيف يعيش.. يريد أن يتعلم منها كيف يتكلم.. وهي لا تبخل.. تعلمه بابتسامتها كيف «يكونها».. كيف يحفظها.. كيف..
يتعلمها!..

شعر بموجة هائلة من المشاعر تجتاحه.. فصاح وهو ينظر لها رافعا يديه مع كلمات الأغنية:

- «انت روجي.. وكل عمري.. ونور حياقي.. ايه أنا.. بالنسبة لك!»
ضحكت بشدة، وتوقفت عن رقصها، وهي تنظر له بحنان الدنيا..
فنهض، دون إرادة منه، ليذهب لها، ويحتضنها بشدة، فتحيطه هي بذراعيها..
في رقة وخجل، تذيبه..

تمايل معها بجسده وهو في حضنها، ثم يضحك دون سبب وهو يمسكها من يدها، ويجعلها تتراقص معه..

نعم أيها السادة.. إنها بلاهة السعادة الحقيقية..

أخذها معه، وهوى معها على الفراش، لتنظر له وهي تضحك.. فيميل عليها ويقبلها..

ذاوبا معها في عالمها الخاص..

هي التي..

تجعله..

ينسى..

العالم..



أصبحت (دنيا) تأتيه كل يومين..

أصبحت المستشفى تحمل لونا آخر غير الأبيض الممل..

أصبحت مكان سكون قلبه في يديها..

تعرفت على (سارة)، التي أحبتها من قلبها، بل وبدأت تطيل الجلوس معها، حتى أن (ب) بدأ يشعر بالغيرة منها قليلا، وهو شيء غير منطقي؛ لكنه يحسه..

كانا جالسين معها في الشرفة كالمعتاد، (ب) و(دنيا) و(سارة)، عندما أتت الممرضة بابتسامة قاتلة:

- عندي خبر حلو..

نظروا لها بفضول، فقالت بسعادة:

- انت هتعمل العملية في المغرب النهارده..

وساد صمت..

شعور غريب.. ما بين راحة الخلاص، وقلق المجهول..

أمسكت (دنيا) يديه في قوة، وهي تنظر له بقلق، ثم قالت للممرضة:

- بس النهارده عيد ميلاده..

ابتسم لها بسمه صفراء، في حين قالت (سارة) ناظرة لهم:

- المغرب!.. ده كمان ساعتين..

قالت المريضة، وقد لاحظت التوتر:

- مانت كنت قارفنا هاعمل العملية امتى وتزن علينا.. دلوقتي مش عاوز تعملها؟..

لم يرد عليها، وقد تجمد لسانه لحظات، فقالت المريضة مطمئنة:

- ماتخافوش.. العملية سهلة إن شاء الله.. وهيطلع منها زي القرد..

وعندما وجدت الصمت المخيم عليهم، شعرت بالخرج ثم قالت:

- هاسيبك عشر دقائق، بعد كده هاجي آخدك عشان أجهزك للعملية..

وتركتهم بسرعة، فتبادلت (سارة) و(دنيا) نظرة خاصة، و(سارة) تقول بابتسامة:

- ايه يا عم.. سهم الله نزل عليك كده ليه؟.. مانا واقفة معاك أهه وعملت خمسين عملية.. دانا لو ماعملتش عملية كل أسبوع أفلق.. آدمنت البنج..

ضحكت (دنيا) ضحكة مفتعلة، وهي تمسك يده أكثر، في حين أعطاها هو ظهره، واستند على سور الشرفة..

هل يملك الرجال تلك الحاسة السادسة أيضا؟..

لماذا يشعر أن هناك شيئا ما خطأ؟..

مر عليه شهر في المستشفى، وهو يتظر في ملل بشع.. لماذا يشعر الآن

فقط أن كل ما انتظره لم يكن كافياً؟..

يريد أن يمضى وقت أكثر مع (دنيا)..

لماذا الآن؟..

لم يشعر بشيء عما حوله، وهو ينظر للنيل ثانياً، بنفس النظرة الكثيبة التي كان ينظر له بها منذ فترة.. لم يشعر بـ(دنيا) وهي تخبر أهلها في الهاتف أنها ستذهب للدروس بعد المدرسة مباشرة، لكي تظل جانبه حتى خروجه من العملية..

لم يشعر بدموع (سارة) الطيبة، التي تعرف ما يمر به جيداً..

لم يشعر بشيء على الإطلاق..

هل كانت هناك صعوبة في ترك (أحمد)؟

بالأكيد لا

مكالمة لم تزد عن عشر دقائق.. مع بعض من عصبيته وسبابه للدنيا..
وانتهى الموضوع..

وشعرت (علا) أنها حرة..

كلمت (ج) مبتسمة، ليرد عليها رده المعتاد:

- أبوة يا (علمولتي)..

ضحكت قائلة:

- انت مش هتبطل اسم الدلع ده؟.. أنا باكرهه..

ثم قالت مسرعة، قبل أن يرد برد ساخر كعادته:

- أنا سبت (أحمد) خلاص..

صمت هو تماما، صمت ألقها.. فقالت بتوتر:

- أنا عارفة أني اتأخرت.. شهرين كثير.. بس أنت عارف أني تقريبا
ماكنتش بكلمه.. كنت بسيله بالراحة عشان مايتوجعش..

لم يرد أيضا، فقالت:

- رد عليّ..

وبعد فترة صمت، كادت تلقي فيها بالهاتف، سمعت صوته الدافئ
يقول:

- ها قابل باباك أمتي؟..

جاء الدور عليها، لتصمت هي تماما من المفاجأة، ثم قالت متسائلة
بحذر:

- أنت بتكلم جد؟

ضحك هو لحظات، ثم قال:

- أنا عمري هزرت في الحاجات دي؟..

ابتسمت، وتصاعدت الدماء في وجتها، ثم قالت:

- بس أنا لسة مااعرفكش قوي..

قال، بسحره الذي تعلقها كثرة عشقها له:

- محتاجة تعرفي عني ايه غير أني خطفتك من الدنيا كلها؟..

قالت مبتسمة:

- هو أنت ازاى يتعرف دايبا تقول الحاجة الصبح قوي كده؟.. أنا عمري
ما حسيت أنك عندك ٢٥ سنة..

صمت هو لحظات ثم قال:

- أنا واحد طيب.. باعرف أرسم حلو قوي.. بحب أعيش كل حاجة
صبح قوي.. بحب أستمتع بكل حاجة، أستمتع بكل إحساس صغير الدنيا
بتديهولنا.. وعائش لوحدي تماما.. مافيش قرايب ولا أهل هيفضابقولك..
وبحبك فوق ما انت تتخيلي.. عشان كده عاوز أنجوزك..

ثم صمت لحظات، كأنها يفكر:

- الدنيا أصغر من أننا نقضيها زعلانين.. نسيب الزعل للناس الغاضية..
خلينا مشغولين احنا بالانبساط..

ضحكت، فقال هو بحماس:

- هاقابل باباك امتى يا (علمولتي)؟..

* * *

هناك شيء غير مفهوم له..

نظر (د) لكل ما حوله بنظرة فارغة، من المستحيل أن تراها في طفل في
هذا العمر..

أين أمه؟..

مرت شهور طويلة أو قصيرة.. وما زال يتذكر وجه أمه، الذي اختفت
فيه نظرة الحنان، وحل محلها جهود مرعب..

يتذكر بكاءه وهو يهزها كي تستيقظ من ذلك النوم العجيب، فلا ترد
عليه.. لأول مرة في حياتها. ترك ذلك داخله شعورًا مؤلمًا لا يفهمه.. ذلك

الأم الذي يجعلك تبكي متواصلا كي ترتاح، ولا ترتاح منه.. ولا تفهم من أين يأتي..

أين أمه؟..

ما زال يتذكر دخول والده عليهم وهو يبكي، ويجلس في ركن الغرفة.. والده الذي نظر لأمه بنظرة حزينة لكن باردة، لم يفهمها (د) أبداً.. وذهب أبوه إليه ليخرجه من الغرفة، لكن (د) أخذ يبكي مصرا أن يبقى في ذلك الركن بالذات، مقاوماً أبيه مقاومة عنيفة. وعندما سأله والده في عنف لماذا يصبر على الجلوس، لم يكن في حالة تسمح له بالشرح..

لقد شعر أن أمه تعاقبه، لأنه جلس بعيداً عنها يلعب ولم يذاكر.. لذا فعل ما يفعله كي يصالحها.. يجلس على (النوتي تشير)، حتى تعرف هي أنه يعرف أنه أخطأ.. وتستيقظ لتأخذه في حضنها ثانية، كمادتها..

أين أمه؟..

وأين هو؟..

ولماذا تغير كل شيء في سرعة؟..

ما زال يتذكر (مروة) وهي تأخذه في حضنها وهو يبكي، وتقول له ببراءة:

- أنا هابقي مامتك خلاص.. ماتزعلش..

ثم تعقد حاجبيها قائلة في صوت عال:

- روح ذاكر وإلا هاضربك..

لكن محاولتها لم تفعل إلا أن زادته بكاء.. هو لا يريد إلا أمه.. ما الصعوبة في ذلك؟.. يريد أن يشعر بها حوله.. أن يشعر بذلك الأمان، أنه مهما فعل

مستكون موجودة.. يفتقد صوتها وقبلتها له، ولعبها معه، وحله وهو نائم لكي تدخله لغرفته..

مازال يتذكر ذلك الشجار بين أبيه وأم (مروة)، الذي لم يفهم شيئا منه. ترددت الكلمات بين (كافرة) و(حرام عليك) و(ما فيش عزا هيتعمل) وكيف كانت أم (مروة) منهارة في البكاء..

يتذكر أباه وهو يأخذه في حضنه، الذي كان يخاف منه، بسبب احتكاك ذقنه الطويلة بخده الناعم..

يتذكر البيت الفارغ تماما من أي روح.. وكثرة جلوسه في بيت (مروة)، التي بدأت تمل من صمته وكآبته..

يتذكر عودة أبيه يوما ما بعد فترة لا يعلم طولها، بسيدة أخرى في البيت، وهو يقول له في هدوء إنها أمه (الجديدة)..
يتذكر ركوضه لذلك الركن في الصلاة باكيا في الليل، معاقبا نفسه أكثر، عسى أن تصالحه أمه، بعد فترة خصام طالت..

تعود عندما يسأله أحد عن أمه أن يقول «ماما راحت الجنة»....

والآن.. ذلك الشعور بالفراغ.. وأن ذلك البيت ليس بيته..

أين أمه؟..



سمع (أسامة) صوت نهضة وشن، فرفع عينيه، ليرى بعض الطالبات قد احمرت أنوفهن، فقال بأسا:

- نفسي مرة يعدي الجزء ده من غير زعل...

لم يرد عليه أحد، فقال:

- نكمل قراية..



بدأ نور النهار يتخلل غرفته، فنظر (أ) لنافذته وقال في دهشة:

- ايه ده؟.. هي الدنيا لسة ماشية برة؟..

ابتسمت وهي تفهم تماما ما يعنيه، فنظر لها وقال:

- مش هتقوليلي بقى اللي عمالة تجري مني فيه ده؟..

أغمضت عينيها بمعنى ياللملل، ثم قالت مستسلمة:

- عاوز تعرف ايه؟..

مرت في عقلة أسئلة كثيرة، لكنه لم يكن يريد أن يسألها أي سؤال، لذا قال بعد فترة صمت، ناظرا لها مباشرة:

- عاوز اعرف ايه اللي حصل؟.. ايه اللي خلاكي زيي؟!..

رفعت حاجبيها في إعجاب، ثم قالت:

- سؤال في الجون قوي.. مابتضيعش وقت أنت..

قال في سخرية افتقدها:

- بعد كل اللي احنا عملناه ده وبتقولي عليّ أنا اللي ماباضيعش وقت؟..

صمت لحظات وهي تنظر للأرض، ثم قالت بأسلوب هادي، متظاهرة باللامبالاة:

- أنا واحدة بنت ناس.. عيلة متوسطة بس مستواها كويس.. خريجة

إعلام.. حببت واحد من أول سنة في الجامعة لي.. قعدت معاه لحد

ما تخرجنا.. اتقدم لأهلي.. وافقوا عليه.. انخطبت له.. بعد كده واحنا رايجين
نشوف الشقة.. اغتصبني..

نظر لها (أ)، مندهشا من تلك البساطة التي نطقت بها الكلمة، ثم قال
بيسمة:

- اغتصبك ازاي؟.. أكيد يعني انت وافقتيه..

ضحكت ساخرة ثم قالت:

- ياريت.. دخلنا الشقة ولسة بنصص عليها، لاقيته هجم عليّ فجأة، ولما
افتكرته يستهبل أو يبجيني قوي كده.. قفشت عليه وبعدت عنه وقلت له
ما ينفعش.. اتعصب قوي.. وراح ضربني بقوته كلها.. وخذني بالعافية..

انفقد حاجباه، وهي تكمل بأسلوب في الكلام سريع:

- وبعد ما خلص وسابني.. نزلت جري.. وروحت وأنا شكلي زبالة
وهدومي مقطعة بتاكسي وقف لي بالعافية.. لاقيته كلم عيلتي وقال لهم «أنا
ما عرفش هي راحت فين والمفروض كانت تقابلني وما جاتش».. بعد زعيق
متواصل واتهامات زبالة صدقوني.. راح هو قالمهم بعد ضغط أنه كان مش في
وعيه.. كان ضارب حاجة.. وانهم لو ما وافقوش يجوزوني ليه هيفضحني
ويقول إنه نام معايا بإرادتي.. والناس هتصدق لما جوزي اللي جي يكشف
ويلاقي ان انا مش علراء..

قال (أ) بهدوء وهو يمسك يدها:

- حيوان يعني..

قالت، كأنها لا تسمعه، وهي تنظر للأرض قائلة:

- المشكلة أن بعدها أهلي بدأوا يزنوا أني أوافق.. وأبويا قفش عليّ وقعد

يلاقي له مبررات.. كل الرجال يشرب حشيش.. وهو لسة عايزك.. وانت
اللي حبيته وخلتينا نوافق عليه.. نعدّيا.. وهو حلف أنه مش هيعمل كده
تاني.. كلام المطيانية ده..

ثم نظرت له لأول مرة منذ أن بدأت أن تحكي، وقالت:
- عارف لما أنت تخسر كل حاجة في حياتك بسبب غلطة مش غلطتك؟
أوما برأسه إيجاباً، فأكملت:

المهم، مع رفضي.. عملت معاهم اتفاق، بعد شهر من المعاملة
الزبالة.. اني اعيش لوحدي بعيد عنهم وأصرف على نفسي وهم يقولوا
للناس اني سافرت اشتغل برة..

ولأول مرة لمعت في عينيها دمعة وهي تقول:
- ووافقوا..

ثم ابتسمت في سرعة، وهي تمسح دمعة كادت أن تتسلسل:
- بس يا سيدي.. هي دي قصة حياتي..

نظر لها (أ) لحظات، ثم اقترب منها، وحضنها في صمت تام..
لا يدرك انسان على وجه الارض معنى أن تقول فتاة كل ما قالته بهذا
المدوء...

معناه أن الموت جعل كل شيء.. عادي..

يقال بلا مبالاه... يقال كأنها هو جزء من حياة شخص اخر بعيد عنك..
اعتراف قاسي بأن الحياة لم تترك لك مجال للتنفس... وانت تقبلت..
وبصدر وحب..

قالت هي محاولة تغيير الموضوع:

- انت بقى ايه اللي واجعك؟

قال وهو ينظر للسقف، ويشعر أن الدنيا كلها ملكه وهي بين ذراعيه:

- مش هاجاوب على السؤال ده إلا لما تجاوبى على السؤال ده...

نظرت له، فقال بابتسامة وهو يمسح على شعرها:

- تنجوزيني؟..

ورغم غرابة كل شيء...

جاوبته هي بصمت..

علامة الموافقة..



كل شيء كان يمر بالتصوير البطيء..

كان يرتدي رداء العمليات، الذي هو عبارة عن شيء رقيق، يصل لفوق
الركبة، ويفلق من الخلف كرداء المجاذيب، ويجلس على كرسي متحرك، كي
يذهبوا به لغرفة العمليات..

وقف كل من يعرفه في تلك المستشفى ينظر له في غرفته، وهم يودعونه
بابتسامة.. نظر (ب) لدموع (دنيا) القلقة، تنظر له بخجل غير مفهوم..
وابتسامة (سارة) المشجعة، والتي تنظر له أيضا بخجل غير مفهوم
ودعابات (عبد الحميد).. لكن ما استغربه حقا، هو إشارة الممرضة له بشيء
ما لم يفهمه، فقال (عبد الحميد) ضاحكا، بعد أن يأس في أن يفهم (ب):

- يابني اقفل رجلك يابني انت قاعد والفستان ده فاضحك..

ضم (ب) ساقه في حرج، ضاعت اللحظة الحزينة بكل معنى الكلمة..
لكن بقي إحساس التصوير البطيء القاتل، والمرضة تدفعه عبر طرقات
المستشفى حتى غرفة العمليات، شئ ما تشعر به، ان كل شئ يضيق عليك..
وحالة سكون غريبة كأنها تتقبل الموت كشئ طبيعي لا بد له من أن يحدث
يوما ما.. هل تلك الرائحة الدائمة في المستشفيات هي رائحة المطهر فعلا كما
يقولوا؟.. أن انها رائحة مخدرة تجعلك تحتلف كل يوم عن التالي..

جعلوه ينام على فراش طبي طويل، ونظرت له دكتورة التخدير قائلة
بابتسامة، تحاول أن تجعلها مطمئنة:

- أخبرك ايه؟

قال بارتباك:

- مش عارف.. بس ليه بتخلوا الواحد يفضل لوحده قبل العملية؟..

- عاوز مين يبقى معاك يعني؟

ابتسم وهو يقول في بساطة:

- أكيد ماما..

ابتسمت الدكتورة، وقالت وهي تضع شيئا ما على وجهه:

- عد لحد ١٠

قال بهدوء:

- عشرة مش كفاية عشان انا..

وسقط في ظلام عميق..

وفتح عينيه فجأة..

شعر بها بنفس السرعة.. مجرد إغلاق العين وفتحها..
وجد نفسه في غرفته المعتادة.. وبعد قليل من الجهد، ميز وجود كل من
(دنيا) و(سارة)..

أغمض عينيه ثانية، وقد أدرك أنه مازال حيا، فابتسم في سعادة، ثم
فتحها ثانية ليرى من حوله بوضوح أكثر..

أول ما رأى هي (دنيا)، فابتسم لما قالت:

- بحبك..

لم يفهم لماذا، لكنها انفجرت في البكاء فجأة، وارتجت في حضنه باكية..
نظر لـ(سارة) ليجدها تكي بكاء صامتا هي الأخرى، ونظر للطبيب،
الذي تجهم وجهه، فتساءل بقلق:

- في إيه؟ إيه اللي حصل؟..

نظر له الطبيب نظرة جامدة... نظرة حزينة تحاول أن تبدو رسمية
ومطمئنة.. وتفشل تماما في فعل أي شيء منهما..

ثم قال له كل شيء..

ولم يفهم شيئا على الإطلاق..

كل ما فهمه أن حدث ما توقعه بالضبط..

لن يعود أبدا كما كان..

وأن الألم لن يذهب بعيدا..

وسياكل من روحه أكثر..

* * *

قال (ج) لها في ذلك الكافيه المحيب لها:

«المشكلة في حبك.. انه إدمان»

ضحكت وهي تريح رأسها على صدره، ربما لتشعر بدفء قلبه، بدقاته
الحنونة، أو لأنها لا تجد مكانا آخر في العالم تستطيع أن تغمض عينيها فيه
بذلك الأمان، ليكمل هو وهو يمسك يدها، ويمرر أصابعه على أصابعها:

« - المشكلة في حبك.. أنه بقى كل حاجة.. أني أحياناً واحنا بتتكلم
باسرح وبانسى مين فينا اللي بيتكلم من كتر ما انت أنا.. عارفة لما الواحد
يحبس ان قلبه متبعتر في كل حنة.. وجت واحدة قعدت تجمع فيه لحد ما بقى
كامل؟.. الناس فاكدة ان الحب هو انك تلاقى «حد» يشيلك في قلبه وتحس
معاها بحاجات لطيفة.. مايعرفوش ان الحب هو انك تلاقى حد.. وتخلق
له قلب مايعرفش غيرك.

ذابت فيه أكثر، ولم تعبأ حتى بمن ينظر لهم في الكافيه وهي بين ذراعيه
هكذا، هي مع رجلها، وهو راضي.. وهذا هو ما يهيمها..

قالت باسمه:

- أنا باعشقك..

أزاحها برفق، وهو يمسك ذلك المنديل، ثم يخرج من جيبه ذلك القلم..
ويغمض عينيها..

وبدأ يرسم..

أخذت تتأمله بعشق..

دائما ترى تلك الهالة التي تحيطه، عندما يرسم بالذات..

يدخل في عالم يخصه وحده، ولا يعلم أحد عنه شيئا..

مر وقت طويل تلك المرة حتى انتهى، ونظر لها بسعادة وهو يعطيها الورقة.. لتسع عينها في انبهار..

كان مكتوب أعلاها «كمان دقيقة»..

ورسم وجهها، وقد ارتسمت عليه أجمل علامات الراحة، والسعادة والفرحة..

وأمامها يده فقط، تحمل ذلك الخاتم الماسي، ومكتوب في زاوية المنديل «مش قلت لك هاخليك تحبيني.. واتجوزك؟»

«will you marry me?»

قالها بالإنجليزية، كما قالت له هي مرارا انها تحب تلك الكلمة بالذات بالإنجليزية.. تشعر أنها أكثر رومانسية. سمعتها منه، فرفعت عينيها عن المنديل، لتجده راكما على ركة واحدة، ماذا يده إليها بعلبة قطيفة، بها خاتم فضة رقيق، ثم أدركت فجأة معنى الكلمة..

لقد رسم لها مستقبلها بدقة واحدة..

توقع رؤية وجهها وهي في تلك الحالة..

وكالمعتاد.. رسمه بدقة..

ضحكت في سعادة، وهي تنظر حولها لعيون الفتيات المبتسمة، وعيون الرجال الساخرة، ثم التفت له وقالت أغبى شيء يمكن أن يقال:

- بس أنت عارف اني موافقة.. ليه عملت كده؟..

ابتسم هو وقال:

- مش معنى أنك موافقة أني مابسطكيش.. مش معنى أنك موافقة..

أني ما احسكيش قد ايه أنت أميرة في قلبي واني ما حاول أعمل كل حاجة
عشان أسعدك..

ضحكت في سعادة، وهي تأخذ الخاتم، ثم تلبسه في أصبعها مبتسمة..
تأكد كل يوم أن مستقبلها لن يكون إلا معه..

* * *

قال (يحيي) ساخطا:

- انت متأثر بالافلام الأمريكية قوي..

قال رجل أربعيني هذه المرة بدلا من (أسامة):

- لا المرة دي أنا مصدق.. انا لسة ابن أختي عمل كده مع مراته ساعة ما
اتقدم لها.. مش د. (أسامة) اللي متأثر بالغرب.. احنا كلنا اللي بقينا غربيين..

ابنسم (أسامة) ناظرا للرجل، فقال (يحيي) بعناد:

- برضه مش داخل دماغى الجوده..

وقبل أن يرد (أسامة)، قال بسرعة مكمل:

- بس تعالى نكمل..

قال (أسامة):

- مافيش تكملة.. كده المرحلة خلصت..

نظروا له مندهشين، فأكمل هو:

- على عكس ما توقعت الطالبة اللي معانا.. مرحلة «الادراك» مش

مرحلة اكتشاف العيوب.. بالعكس.. هي مرحلة إدراك المسئولية.. مرحلة
إدراك ان بقى في حد فعلا وانا عاوز أكمل معاه.. المرحلة دي بتبقى من

أغبي مراحل الـ(هييتا) لسبب.. أن القرار يبعجي من غير دراسة.. يبقى قرار احتياج.. أنا عاوز أكمل وخلاص.. القلب بيتكفل أنه يداري العيوب كلها عن العقل.. ويخليه بس يحس بمسئولية أن لازم يوصل لآخر العلاقة.. الجواز بقى أو الجنس.. أو أي نهاية الواحد بيسمى ليها..
ثم أخذ نفسه قائلًا:

- م الآخر كده.. كل القرارات بتتاخذ في المرحلة دي في مجتمعنا.. يبقى الحب بس سبب كافى لتكافئ العلاقة.. كل واحد بيلتزم بوعود هو مش قدها.. يشوف الدنيا ربيع وانه قادر يعمل كل حاجة.. فمرحلة الادراك هي أسوأ مرحلة فعلا، لأن عادة الندم يحصل بعدها.. ويحصل بعدها بمرحلتين.. جزء كبير قوي من القرارات دي يبقى فيه هرمونات وطاقة و«غشومية» زي مايقولوا..

وأكمل متجها للسبورة في حماس:

- وده يودينا للمرحلة الخامسة..

وكتب تحت كلمة (هييتا) بحروف عريضة:

- المرحلة الخامسة.. «الحقيقة»..



٥- الحقيقة

لا توجد حقيقة مطلقة... مجرد أكاذيب عشقوا تصديقها..

قال (أسامة) بابتسامة مرحة:

- احنا المرة دي هتناقش المرحلة بأسلوب مختلف تماما.. نكسر الملل شوية.. أو ندخلكم وسط الأحداث أكثر..
ثم بدأ يرسم على السبورة عواميد طولية، مقسما إياهم، ثم التفت لهم قائلاً:

- قدامكم ربع ساعة تقروا فيها المرحلة الخامسة في سركم.. بعد كده نتناقش في آرائكم..

نظروا له في عدم فهم، فقال بهدوء:

- احنا عمالين نقرا من أول المحاضرة لحد دلوقتي.. المرة دي هيبقى في تفاعل منكم..

لم يفهموا أيضاً، وهو في الحقيقة لم يكن يفهم أيضاً.. تلك كانت أول مرة يجرب فيها شيتا كهذا، ربما لأنه لم يحظ بهذا الاهتمام في محاضرات سابقة، طلاب من أول الثانية والعشرين إلى الخمسين سنة.. يسألون طوال الوقت، يحاولوا أن يفهموا حقاً.. فلماذا لا يحاول معهم أن يجرب شيتا جديداً، يحرك به المحاضرة قليلاً؟.. قال بابتسامة:

- في مجموعة منكم هتقرأ (أ)، ومجموعة هتقرأ (ب) ومجموعة (ج) ومجموعة (د).. وهتفهموا لما تخلصوا..

تم اختيار المجاميع بسرعة، وجلس (أسامة) رافعا قدميه على المكتب،
كعادته.. وأغمض عينيه..

تذكر أول محاضراته، عندما كانت (هييتا) مجرد مصطلحات علمية
وتداخل في سيكولوجية النفس البشرية.. الاعتماد والاتكاء والتعايش
والتسامي والشيزوفرانيا المجتمعية.. عندما كانت مراحلها تبدأ بـ ٢٥ نقطة
في كل مرحلة.. ويشرح هو كل نقطة بنفس الأسلوب.. كان من يحضرون لا
يزيدون عن ٥ من طلاب العلم النفسي، وكانوا لا يفهمون شيئا وينصرفون
سرعين.. وتبقى في النهاية فتاة مسكينة لآخر المحاضرة، ولا يكون هدفها
الفهم على الإطلاق.. بل السعي وراء عريس، قد يتأثر باحترامها المبالغ فيه،
والذي - بخبرته - يعرف أنه ظاهري تماما..

أمسك هاتفه المحمول، وكتب في الـ (واتس اب):

- وحشتيني على فكرة..

ليجدها تكتب على الفور، كأنها كانت تنتظره:

- وانت كمان وحشتني قوي.. في بنات حلوة في المحاضرة؟

ابتسم في حنان وهو يكتب:

- مافيش واحدة أحلى منك لحد دلوقتي..

ثم كتب مازحا، كي يفيظها كعادته:

- بس أول ما الاقيها صدقيني هنفض لك..

لترد:

- هاقتلك يا أسامة..

ضحك، حتى أن الطلاب نظروا له، لكنه لم يلحظ وهو يكتب:

- سبع سنين جواز ولسة بتغيري؟

لتكتب هي باسمه:

- ولو بعد عشرين سنة.. هافضل أحبك برضه وأغير عليك وأقتلك عادي جدا:)..

- بحبك..

ثم كتب بسرعة:

- طيب سلام دلوقتي عشان أكمل المحاضرة.. أنا في المرحلة الخامسة.. ونهض ناظرا لهم.. بدأت علامات التأثر تبدو عليهم.. يعشق تلك اللحظة، التي تبدأ النساء فيها بالبكاء وتحتقن وجوه الرجال.. يعلم أن ذلك الإحساس قد وصلهم بأسلوب أو بآخر.. أن توصل إحساسا معيناً واحداً، أكثر فائدة من مائة معلومة علمية جامدة..

صفق بيديه وهو يقول:

- انتهى الوقت..

ونظر له كل الطلاب في تركيز..

* * *

قال (أسامة)، مستمتعا بتجريب تلك الطريقة معهم:

- دلوقتي من مجموعة (أ).. مين يقدر يحدد لي اسم الإحساس اللي مسيطر على قصته في المرحلة دي.. ومين يقدر يربط بينه وبين حياته الشخصية؟..

طلت البلاهة واضحة في أعينهم، فقال بأسما:

- بالراحة طيب.. مرحلة «الحقيقة» دي مرحلة بسيطة قوي.. بس احنا لازم نبدأ بتحديد أسماء المشاعر ونربطها ببعض.. يعني مثلاً هاساعدكم في أول واحدة دي.. الإحساس اسمه..؟

رفع أحد الطلاب يديه من مجموعة (أ)، فابتسم (أسامة) وقطع كلامه، وأشار للطلاب قائلاً:

- اتفضل..

قال الطالب، وهو رجل ثلاثيني بدأ يغزو شعره بياض وراثي، بتردد:
- اسمي (حمزة).. السيطرة.. قصة (أ).. هو ده الإحساس اللي بدأ يظهر..

ارتفع حاجبا (أسامة) إعجابا وهو يقول:

- الله ينور.. وبيا أنك انت عرفتته.. قصتك معاه ايه.. أو عملت زي (أ) في حياتك ازاي؟..

قال (حمزة) بهدوء:

- أنا قصتي مختلفة شوية.. أنا التجوزت جواز صالونات عادي جدا.. أنا مهندس بترول.. باسافر كتير.. ووالدتي جابت لي عروسة وكان شكلها لطيف فاتخطبنا بسرعة.. المهم عشان ما أطولش عليك.. فترة الخطوبة كانت روعة.. بس هي قالت لي عيب صغير فيها إنها «حرة» قوي.. بتكرة الراجل اللي بيعجب يسيطر عليها.. أو يأمرها من غير تفكير وكده.. وطول مانا مش باعمل كده هي لو حدها متبقى ملكي.. بس باختيارها.. ولو عندي مشكلة في الموضوع ده بلاش نكمل..

التفتت إليه رؤوس الطلاب، فتردد لحظات ثم أكمل:

- المهم بعد ما التجوزنا، تصرفاتها ما اتغيرتش كتير.. بس إحساس الراجل بعد الجواز بيختلف تماما.. بيشيل مسئولية بيت، وشايفها هي عرضه وشرفه.. منعته من النزول طول ما أنا مسافر.. حتى ماتزورش مامتها.. منعته من الكلام في التليفون.. ولازم تحكي لي كل حاجة بالتفصيل ولما ارجع بقى تبقى براحتها.. وبالتالي وصلنا لطريق مسدود.. والي بينا طفلة مخليانا مكملين.. بس مابقيناش أصلا متجوزين.. بعدنا قوي..

أوما (أسامة) برأسه وهو يقول:

- بالظبط زي اللي حصل مع (أ)..

ونظر لجميع الطلاب حوله، كي يستطيع أن يشرح لكل من ينظر له دون فهم:

- بداية المرحلة كانت إقناع (أ) لـ (رؤى) بالجواز.. عدم تصديقها لجنونه، وهو يقول كل حاجة هو حاسسها..
وأشار لسطور ما على الورق، وقرأها..

* * *

قال (أ) وهو يمسك بيديها:

- الحياة أصغر من أننا نعيشها بعيد عن بعض أكثر من كده.. أنا عايزك لي أنا لوحدي.. مش عايز حتى الما يشاركني فيك.. ووعدتني هافضل عمري كله مش باعمل حاجة غير أني أبقالك.. وأعرف قيمتك قوي.. ولا هازق ولا مشاعري ليك هتقل لحظة.. ومش مستني منك غير أنك تبقى بتاعتي بس..

ثم صمت لحظات، وهو ينظر لعينيها الدامعة، ويكمل:

- وكل اللي مستنيه منك أنك تقدري ضعفي.. تقدري وجمعي.. ولو ضايقتك تفهميني وتقولي لي عشان مااعملش حاجة فيك تاني..
لتضحك هي وسط دموعها و.. إلخ إلخ..

* * *

قالها (أسامة) مقاطعاً نفسه، ونظر لهم مكملًا:

- الواحد بيغلط غلطة دايمًا في بداية المرحلة الخامسة.. بيوعد وعود كثير قوي، هو مش عارف عمقها ولا آخرها.. بداية المرحلة الخامسة هي بداية ظهور ضعف كل واحد في العلاقة.. عقده النفسية.. وجعه.. كل الوحش بيدأ يظهر على السطح، لأن كل الحلو خلاص اتعرف في المراحل الأربعة

الأولى.. واحنا كلنا بنبي البشر فينا الوحش قوي ونقط ضعف كثيرة جدا..
لازم تظهر مهما حاولنا نخيبها..

ونظرت له (حمزة) مكملًا في حماس:

- هنا (رؤى) وافقت.. حسنت انها أخيرا لقت الراجل اللي يقدر..
انها مستعدة تعمل كل حاجة عشانه.. فوعدته، وبرضه هي مش عارفة
كل الوحش اللي فيه وفيها.. المهم.. بجنانهم المعتاد، راحوا لأول ماذون
وكتبوا كتابهم، مع شهود يتدفع لهم فلوس عند الماذون.. وفي ثواني بقي (أ)
(رؤى) اتنين متجوزين.. وفي قمة سعادتهم..

وأكمل وهو يرفع أصبعه، كأنها يعد شيئا ما:

- عشان يظهر أول إحساس في المرحلة الخامسة.. هي السيطرة زي ما
(حمزة) قال.. بس أنا هاحدد عنه شوية.. «الامتلاك» في العموم.. إحساس
السعادة الصافي اللي بتبقى عاوزه ليك لوحدك.. الامتلاك غير الغيرة
عل فكرة.. وهنعرف الفرق كمان شوية.. المهم.. بدأ (أ) يحس أنه عاوز
يمتلك (رؤى).. عدت عليهم شهور كثير، خلصت كل المنع الرومانسية
والجنسية.. وبدأت (رؤى) تتخنى شوية..

وأخذ نفسه، وهو يتجه للورقة ثانية، ويقرأ..

* * *

نظرت له (رؤى)، لا تدري ماذا تفعل..

(أ) كان شخصا مرجوعا دائما.. لا يثق في أي شيء في الدنيا عل
الإطلاق.. إنها حقا تشعر بأنه ملكها، بل وتكتمل به.. مازالت بعد تلك
الفترة تراه فارسها، الذي انتزعها من كل ما في الدنيا من هموم..

لكنها تتألم من تلك النظرة القاتلة في عينيه..

نظرة «سوف تتركيتني»..

تراها في عينيه وهو يتركها لينهب لعمله.. تراها في عينيه عندما تعود من عملها، ويكون هو قد عاد قبلها.. تدرك من تلك النظرة أنه توقع أنها ستهرب منه.. أنها لن تعود له ثانية..

أقسمت له مرارا أنها لن تجد في الحياة من هو مثله، ذلك الرجل الذي اختطفها من الدنيا، ليجعلها تعيش في جنته الخاصة.. تقسم له أنها تعشقه.. لكنه كان يرد برد سخيف:

- أنت بتقولي كده بس عشان أنت في الأول.. مسيرك هتزهقي..
وكانت، رغم كل شيء، تفهم قصده.. تفهم ما خلف تلك الكلمات.. ببساطة، وجعه أعمق من أن يثق في أي شيء.. لا يصدق للحظة أن تكتمل الأمور بتلك السعادة.. لا بد من «خازوق» ما.. لا بد من وجع ما..
«بس هي بدأت تتخنى فعلا»..



قالت (أسامة)، وهو يلتفت لهم قائلاً:

- اتخنى من أنها كل شوية لازم تثبت له قد إيه هي بتحبه.. اتخنى من أن بعد كل اللي هي بتعمله ده هو لسة مقتنع أنها هتسييه ومش بتحبه أو هتزهق بسرعة.. وعشان هو معودها على الصراحة، بيقول لها عل كل حاجة.. فهي بدأت تصدق فعلا أن مافيش أمل.. وأنها عمرها ما هتعرف تسعده.. واتخنى.. بجد..

أوما الطلاب برأسهم بمعنى «عندها حق»، ليرفع (أسامة) إصبعه الثاني قائلاً:

- هنا يظهر ثاني إحساس في المرحلة الخامسة.. عدم تقدير حجم المشكلة في الطرف الثاني.. أو عدم التقدير في العموم..
وأشار للطلاب، مستمتعا بتجربته الجديدة:

- مين فيكم هنا يقدر يلاقي شبه حصل له في حياته..
رفعت طالبة شابة - في الثلاثينات ومحجة - يدها في تردد، فأشار لها
(أسامة)، لتقول:

- اسمي (نورا).. متزوجة.. أنا انجوزت عن قصة حب استمرت سبع
سنين مع ابن عمتي.. طول مالحنا كنا بنحب بعض قوي.. كل وقته كان
لي.. وحارب أهله وأهلي عشان نكمل مع بعض.. من أول ما انخطبنا قال
لي أنه لازم يشتغل في مكانين عشان يعرف يجيب فلوس نخلينا عايشين
مرتاحين.. بيشتغل من الساعة ١٢ ليل لحد الساعة ٩ الصبح.. ومن ٩
ونص الصبح لحد الساعة خامسة.. فلازم أستحملة، لأنه تقريبا مش هيبقى
موجود.. في الأول كنت فرحانة جدا أنه بيعمل كل ده علشان.. بس بعد
كده اتخفقت.. هو مش موجود خالص فعلا.. بدأ يتعصب على كل حاجة..
مش عاوزني أنزل ولا أقابل اصحابي ولا حتى أتكلم في التلفون.. خلاني
أقطع علاقتي بأي راجل حتى قرايبي.. كل ما أقول له واحشني وعاوزاك
معابا شوية يتعصب ويقول لي انا بعمل كل ده علشاننا.. فاتخفقت..
وصمت لتأخذ نفسها، وقالت مكلمة:

- بعد كده انجوزنا.. بس هو مابقاش نفس النبي آدم.. وانا مابقتش
عارفاه.. بس خلاص.. هو جوزي وأمري إلى الله.. عايشة معاه على ذكرى
السبع سنين حب.. بس كده..

ارتفعت أياد كثيرة تلك المرة، فقال (أسامة) مبتسما من حماسهم:
- ماتستعجلوش.. قيسوا كل اللي قالته (نورا) على اللي حصل مع (أ)
(ورؤى)، هتلاقوا ان التشابه في الإحساسين متماثل.. الامتلاك.. وعدم
التقدير.. مهما اختلفت القصص..
ثم أخذ نفسا عميقا تلك المرة، وهو يقول:

.. نخش بقى في الإحساسين الي بعديهـم.. (ب) و(دنيا)..

ونظر لمجموعة (ب) قاتلا:

.. مين فيكم لقى نفسه في الي حصل مع (ب)..

وفي تلك المرة، ارتفعت أياد كثيرة أيضا..

* * *

قال طالب.. في أواخر العشرينات، أصلع قليلا:

.. الضعف..

هز (أسامة) رأسه بمعنى (مش بطال) وأشار له أن يكمل، فقال الطالب:

.. اسمي (أحمد).. سينجل..

ثم ضحك ضحكة خفيفة وهو يقول:

.. ما عرفش اسمها ايه بالعربي.. (لوحدي) مثلا؟

ضحك من في المحاضرة، فأشار له (أسامة) أن يكمل ثانية، فقال (أحمد)

بتردد:

.. أنا طول عمري شاب عايش حياته «مقضيها».. ارتبطت ببناات كثير

وزي الفل.. لحد ما ارتبطت بـ(أسماء).. حينها قوي بجد، وكان نفسي

اثبت لها ده بكل الطرق.. المهم يعني هي كانت متدلعة شوية ومستواها

كويس.. اتقدمت ليها وأهلها وافقوا وقشعة يعني وكله تمام.. لحد ما كنت

مسافر مع أهلي وعملنا حادثة والدي توفي..

صعدت مهمات بمعنى (البقاء لله)، فابنسم هو ابتسامة حزينة مكملًا:

.. عادي يعني بتحصل.. المهم.. هي المفروض كانت خطيبيتي.. انا

بقيت كتيب فشخ.. مش طايق نفسي.. وكل الي محتاجه منها أنها تفضل

جنبي.. الواحد متنا لو أبوه مات يبجس أن ضهره انكسر فعلا.. ان سنده

الوحيد في الدنيا راح.. فكنت محتاجها تسمعني قوي.. لما نخرج خروجة

تحضنني لو عيظت.. تستحملني يعني من الآخر.. لحد ما ربنا يكرم وأبقى كريس.. أول ما عدا أربين أبويا.. سابتلي الدبلة وقالت لي إنها كانت فكراني «أرجل» من كده.. وهي مش شايقة مستقبلها مع واحد ضعيف.. وان هي لسة صغيرة على الكآبة دي.. وانها كانت بتحضنني ومستحملاني الأيام اللي فاتت عشان أنا كنت صعبان عليها.. بس كده..

لأول مرة شعر (أسامة) بتأثر، جعله يتنحج مع همات الطلاب (ليه كده) و(أزاي تعمل كده)، فقال مقاطعا إياهم:
- بلاش نغلظم البنت..

التفتوا إليه جميعا باستنكار، فقال هو مستعيدا شخصية المحاضر:

- اللي حصل لـ (أحمد) يشبه كتير اللي حصل مع (ب)..

وبدأ يحكي لكل من لم يقرأ (ب) بعد:

- (ب) كان داخل يعمل عملية جراحية لاستئصال ورم حميد، بيضغط على الأعصاب في مستوى الفقرة الرابعة والخامسة.. فالدكتور أصاب الأعصاب الطرفية.. مما أدى لشلل في عضلات الرجل.. حد فيكم فهم حاجة؟

أوماوا برؤوسهم أن لا، فقال هو ميتسما:

- مش مهم تفهموا الأمور الطبية.. المهم.. أن (ب) عرف أن الوجع هيفضل مستمر طول عمره.. بسبب غلظة دكتور.. اه هي كانت من المخاطر المهمة جدا في العملية.. وهو كان عارف أنها ممكن تحصل.. بس اشمعنى هو؟..

ورجع للورق، وبدأ يقرأ بصوت عال:

* * *

كان الألم لا يطاق..

بدأ مفعول البنج في الذهاب، فشعر بالآلام لا توصف في مكان الجراحة
وفي قدمه..

اعتصر الهاتف المحمول على أذنه، وقال لها:

- مش قادر استحمل الوجع يا (دنيا).. أنا عاوز أموت..

بدأت دموعه تهبط في غزارة، فقالت (دنيا) بدموعها:

- معلش.. تعالى في حضني..

نأوه أكثر، فشمرت بقلبها يتمزق وهي تسمع صوت بكائه المكتوم، ولا
تدري ماذا تفعل. أرادت أن تكلم أي من أهله، لكنها تعرف أن والديه
ماتا في حادثة طائرة بشعة وهو في الحادية عشر من العمر، وهو يعيش الآن
بالتعميض، ومن شركات التأمين، وانعزل تماما عن كل شيء إلا المدرسة..
نظرت لأمها، التي دخلت غرفتها الآن تحديق فيها بصرامة، وتشير أن
الساعة الآن الثانية صباحا، في حين قال (ب) صارخا:

- كفاية وجع بقي..

الآلم كان رهيبا، حتى مع جرعة المستشفيات الرسمية من المسكنات،
التي تهبط من ذلك السائل المعلق بجانبه..

لم تستطع النطق أمام نظرة أمها الصارمة، ثم لم تدر ماذا تفعل، فضغطت
على زر إنهاء المكالمة، لتقطع صرخة عالية صدرت من سحابة الهاتف،
ودموعها تزداد، ونظرت لأمها، التي أشارت لها أن تعطيها الهاتف..
وبدون نقاش، ضغطت على زر الرفض، لتقطع رنين الهاتف عندما كلمها
(ب) ثانية، ثم أغلقت الهاتف تماما، وناولته لأمها..

وقلبها يتقطع ألما عليه..

«بس (ب) عمره ما كان هيفهم»..



قالتها (أسامة)، قاطعا قراءته بأسلوب بدهوايكرهونه منه، ليكمل هو:
- دي بداية المرحلة الخامسة بالنسبة لـ(ب).. وجع رهيب عمره
ما شافه ولا حسه قبل كده.. مافيش لا أهل ولا اقريب.. وكل اللي محتاجه
حد يشاركه الوجع ده.. حد يبقى جنبه أو معاه..
وأخذ نفسه، ثم أكمل:

- لو راجعنا قصة (ب) من الأول هنلاقي أنه واحد كان بيتحرك كتير
قوي.. حريف كورة.. بيتفلسف شوية.. من الآخر شاب عادي جدا في
عمر المراهقة.. شايف انه عرف الدنيا كلها ومافيش جديد.. فجأة لقي
نفسه بيواجه تجربة جديدة وورم وعملية.. وانصاب في العملية دي بحاجة
هتفضل مأثرة عليه عمره كله.. ومافيش حد هو سامح له بدخول المغارة
دي غير البنت اللي حبها.. (دنيا)..
ورفع أصبعه الثالث، مكمل في العد:

- عشان نيجي للإحساس اللي (أحمد) قال عليه.. الضعف.. بس
هاصححه أنا للكلمة الأدق.. «الاحتياج»..
وأكمل:

- (ب) كان محتاج (دنيا).. مش محتاج حبها.. أكثر حاجة بتهدد الحب
أو بتقلله.. لما الحب يتحول لاحتياج مطلق.. بس البشر عشان أضعف من
أنهم يعترفوا بده.. بيسموه حب.. (ب) كان بيمر بضغط كثير قوي خليته
محتاج حد معاه.. ماينفمش يبقى لوحده.. فحب (دنيا) قوي.. وشاف فيها
المستقبل المريح.. اللي فيه النص الثاني اللي ممكن يتسند عليه.. عشان كده
لما نكمل قراءة في المرحلة الخامسة، هنفهم ليه فضل يعامل (دنيا) بأسلوب
وحش قوي.. ليه قلب عليها ١٨٠ درجة كده.. هو شاف أنها ماقدرتش
احتياجه، وفي نفس الوقت شاف نفسه ضعيف قوي لأنه بكى قدامها..

صورته الي صورها لنفسه أنه راجل وهستحمل، انهزت قدام نفسه في
عينها ونظرتها ليه..

وأكمل وهو ينظر لهم:

- بس ايه رأيكم لو بصينا للدنيا من عين (دنيا) شوية؟..

وعاد بسرعة للورق الملقى على المكتب، وهو يقرأ بصوت عالٍ:

* * *

ومر أسبوع، وما زال الألم لا يطاق..

هل شعر بفرق عندما أخبرته (دنيا) أن أمها قد علمت بكل شيء، ومن
لحظتها وهم يعاملونها في البيت معاملة سيئة، وأنها منذ ذلك اليوم الهاتف
ليس معها، وأصبحت تزوره كل ثلاثة أيام مرة؛ إن استطاعت؟..
شيء ما انكسر فيه، ولا يدري ما هو تحديدًا..

(سارة) و(عبد الحميد) هم من ظلوا بجانبه في المستشفى، يطمئنان عليه
ليلا نهارًا.. كان لا يد له أن يظل أسبوعين تحت الملاحظة، ليتأكدوا من مدى
تأثر الأعصاب الطرفية بما حدث.. أو بمعنى أدق.. أن يتأكدوا إن كانت
هناك خسارة أكبر..

«- نصبحتي ليك.. الحق نفسك قبل ما الوجع يغيرك.. لأنك عمرك ما
هتعرف ترجع ثاني..»

الألم يغير كل شيء حقا..

هو يجب (دنيا)، لكنها لن تستوعب أبدا ما يمر به.. شيء ما، بعد كل هذا
الوجع، جعلها أكثر سطحية عما كان يتوقع.. ففي النهاية.. هي فتاة لا تزيد
عن سبعة عشر عاما..

«لا تزيد عن سبعة عشر عاما»

* * *

كررها (أسامة) بصوت أعلى، فانتبه إليه الطلاب، ليكمل هو:

- (دنيا) دي بنت عندها ١٧ سنة بس.. كل أحلامها أنها تحب مجموع كويس تحس بيه جامعة محترمة عشان تشتغل شغلانة كويسة.. بنوثة نفسها تحب وتتحب.. شافت ولد دمه خفيف وييمر بظروف صعبة فحبه قوي.. بس فجأة اكتشفت انها.. وهي سنها صغير كده.. بقى مطلوب منها أنها تبقى أم وأخت وحبيبة لواحد مريض بيتوجع كل يوم وشايل كل ده عليها.. مطلوب منها أنها تفضحك له وتزوره وتكلمه كل شوية وفي نفس الوقت تذاكر وتروح دروسها وو..

وارتفع إصبعه الرابع مكملًا العد قائلا:

- عشان نوصل للإحساس الرابع.. إحساس مشترك قوي بين كل الناس ومكرر.. «عبء المسؤولية».. أو بمعنى أدق «الحمل»..

ارتفعت أياد كثيرة تلك المرة، فأشار لهم (أسامة) أن ينتظروا وهو يكمل:
- مش محتاج أسمع قصصكم في دي.. البنت البرينة في أول أيام جوازها لما تكتشف أن حمل البيت كله عليها.. الشاب اللي كان فاكر أنه هيقدر يتجوز ويكتشف أن في حمل فلوس بيت كامل على كتافه.. الزوجة المخلصة اللي جوزها عمل حادثة واتشل مثلا.. الأطفال لما بيبجوا بتعبهم ومصاريفهم.. الحمل ده إحساس تقيل قوي.. بيتقل في الروح وبيتقل في الحب.. كل واحد بيبصر للطرف الثاني على أنه مش فاهمه.. كل واحد مستني من الثاني أنه يخفف الحمل، مع أن كل واحد منهم فيه اللي مكفيه.. المرحلة الخامسة هي - وخدوا بالكم من الكلمة دي كويس قوي - بداية الإحساس بكل ده..

قالت فتاة مقاطعة دون أن تدري:

- المرحلة الخامسة دي كثيفة قوي..

ضحك الطلاب في هدوء، في حين قال (أسامة) بإبتسامة جانبية:

- المرحلة الخامسة زي ما أنتم قريتوا مرحلة كبيرة قوي.. ويمكن نحصل

في أيام، ويمكن تحصل في شهور أو سنين.. وهي دي صعوبتها.. عاملة زي
السرطان كده.. يقعد يتسلل جوة الواحد سنين.. ومايعلنش عن نفسه
غير في وقت حرج قوي.. ويكون الشفاء منه من المستحيلات..

أوماؤا برؤوسهم أن نعم، فتتحنح هو قائلا:

- تدخل على الإحساسين اللي بعدهم..

ونظر لهم مشيرا بسباباته:

- مين فيكم حس أن فيه من (ج) و(علا)؟..

وفي تلك المرة، ارتفعت أيادي كل من كان يقرأ مجموعة (ج)..!

* * *

ضحك (أسامة) في سعادة، من رؤية تلك الأيادي المرتفعة، وقال:

- طبعا كلكم لاقيتوا نفسكم في القصة دي..

ضحكوا في بساطة، فأشار (أسامة) لرجل أربعيني قائلا في دهشة:

- حتى أنت؟..

قال الرجل، وكان ذا شارب خفيف ولحية قصيرة، مما تسمى
بالـ(دوجلاس):

- أنا اسمي (علي).. متجوز.. وباعشق مراتي بطريقة غير طبيعية..
اه طبعا بعد الجواز المشاعر قلت كثير.. لمعظم الأسباب اللي انت قلتها
من شوية.. بس تفضل المشكلة الرئيسية.. الغيرة.. مايرضاش أنها تكلم
حد.. رغم أن هي أصلا متدينة ومحترمة بطبعها.. خليتها تتنقب عشان
مايستحملش حد يشوفها غيري.. ماخليهاش ترد على التليفون الأرضي
عشان صوتها مايعجبش حد غيري.. وهي راضية وقنوعة الصراحة.. بس
رضاها وقناعتها دول بيخلوني أحس أنها مكتفية بحد ثاني.. أصل ماحدث
يستحمل اللي بعمله فيها..

قال (أسامة) معقبا:

- اتنين مش بيفترقوا.. توأم متماثل.. الغيرة والشك.. أنا شخصيا
باحسبهم إحساس واحد!..

رفع أحد الطلاب يديه وسأل:

- طب ايه اللي يفرق الغيرة عن الامتلاك؟.. انت قلت انك هتوضح
الفرق..

شعر فجأة أن الموضوع تحول إلى برنامج تعليمي ممل، بدأ الموضوع يعود
إلى المحاضرات الأولى.. كانت التجربة في البداية ممتعة، لكن هل ستظل
هكذا؟..

قال، وهو يقرر داخله أنها ستكون آخر إجابة في هذا الموضوع:

- الغيرة أساسها عدم ثقة في النفس.. الولد أو البنت يبيقوا خايفين أن
الطرف الآخر لما يمر بتجارب ثانية ويشوف ناس ثانية ويكلمهم ويتعامل
معاهم.. ممكن يهجروا أو يخونوا بعد كده.. وعشان كده بتبقى خناقة لرب
السم لما يحصل حاجة زي كده من كل واحد.. اما الامتلاك، فهو انك تطلب
من حد أنك تبقى محور اهتمام حياته كلها.. ان ربنا فوق.. وانت تحت.. كل
الكلام والتصرفات والأسلوب والضحك والزعل والحنية وحتى الغضب
بيقوا عشائك أنت بس.. فرق شاسع بين الاثنين.. وما فيش واحد إلا وفيه
مزيج من الاثنين..

وقال بسرعة، حتى لا يسأل أحد آخر عن شيء:

- في بداية المرحلة الخامسة، بالنسبة لـ (علا) و (ج).. انه خلاص.. قرب
يتقدم لها.. وهي كلمت أهلها عليه.. وحاسة ان حياتها مكتملة.. ودلع
وحنية وفرحة بجد.. هنا يبدأ (ج) يظهر أول عيوبه.. الغيرة.. والشك..
في الأول المواضيع بتبقى بدلع وبخفة دم.. انا بغير عليك من أهوا الطاير..
وهي تضحك ومبسوطة.. عملوا الحركة اللطيفة بتاعة ان كل واحد ياخذ

كلمة سر الثاني.. وكل ده عادي..

وصمت لحظات ليكمل:

- لحد ما اتخطوا في موقف جد.. انها خرجت مع الشلة بتاعتهم، وكان (احمد) موجود هناك.. ماتسوش ان احنا بتكلم في شهور عدت عليهم في سعادة صافية.. سألته اذا كانت تروح ولا لا قال لها مافيش مانع.. عشان ترجع على أكبر خناقة حصلت لها في حياتها.. هاقول لكم حنة منها..

وبدا يقرأ..



أمسكت الهاتف بعصبية وهي تقول:

- انت متعصب عليّ ليه؟.. مانت كنت عارف أني رايحة ويمكن هو يكون هناك..

ليرد عليها (ج) بصوت هادي:

- ممكن يكون هناك.. جيت على نفسي وقلت لك مافيش مشاكل وقلت انك هاتقدري ده.. لكن تفضلوا تتكلموا طول القاعدة وهزار وضحك.. وفي الاخر يوصلك بعربيته لحد البيت.. ليه؟

رغم هدوئه هذا، فهي تعرف أن هدوئه لا يعني إلا أنه يفور من داخله، لتقول هي بعصبية في غير فهم:

- وانت ايه اللي بضايقت في حاجة زي كده؟ دا انت اللي خليتني اكتشف اني مابحوش ولا بطيقه.. اول ما اشوفه يعني هارجعله مثلاً واخونك؟..

عصبتها وصراخها جعلاه يرد أقصى رد تخيله، فبصوت بارد وهادي قال:

- وأيه المشكلة.. ما انت ختيه معايا.. وسبتيه..
لتسع عيناها، في صدمة لم تشعر بها في حياتها، وقالت بصوت خافت:
- انت قلت لي إنك عمرك ما شفتني خاينة!..
قال هو بنفس الصوت البارد:
- وماكديتش.. أنا عمري ما شفتك خاينة.. بس في نفس الوقت عمري
ما هائق في انك مش متخونيني بعد كده!..
«أنا كنت متأكدة أن (ج) ده مش كويس»



صاحت بها إحدى الطالبات في حماس، مقاطعة (أسامة)، لبيتسم هو،
ثم نظر لهم قائلاً:

- وبستمر المرحلة بين خناقات بتزيد بينهم، بس دايبا بيحلوها.. إذا كان
بنقاش أو أسف.. لحد ماوصلنا لنقطة أنه قابل باباها.. والراجل بيشوفه
بني آدم كويس فعلاً.. (ج) معاه شفته، معاه فلوسه، وعريته، بس ناقصة
حاجة مهمة جداً.. الشغل اللي بجد.. والد (علا) لما عرف أنه رسام بس..
استهزأ بالموضوع شوية.. وعرض عليه كذا فرصة عمل كويسة في أماكن
ناس يعرفهم، زي تصميم الديكورات وحاجات زي كده.. عشان يضمن
دخل ثابت لبتته.. المهم.. (ج) بيوافق بعد زن كثير من (علا).. هو بيعجبها
فعلاً.. وعاوز يعيشها في مستقبل أحسن.. فيقبل بشغلانة مرتبها مش
بطال.. بس كعادة كل الفنانين الحالمين زيه.. كان مش واخذ شغله جد..
شايف أنه وسيلة ماينفعش يبقى أسلوب حياة، أو ان الشغل ماينفعش
ياخذ أكثر من أهميته ووقته..

وصمت قليلاً، لتأتي اللحظة التي كانوا ينتظرونها، عندما رفع إصبعه
السادس وهو يقول:

- (علا) هنا بتبدأ تحس أنه متدلح شوية.. أو أنه لازم يبجي على نفسه شوية.. فبتبدأ واحدة واحدة تكره موهبته بعد ما كانت بتبهرها.. هتبقي عاوزة تغير من صفاته الأساسية زي تريقته وهزاره ولا مبالاته.. عاوزاه يبقى جد زي باباها مثلاً عشان تحس معاه بأمان.. وده ينقلنا للإحساس السادس بعد الغيرة..

وكعادته صمت، وهو يرفع ستة أصابع مكملًا:
- عدم الرضا.. أو بمعنى أدق.. الرغبة في التغيير.. أو بمعنى أدق وأدق.. التطبيع..

ليتجه للورق، كعادته في تلك المرحلة، ويقرأ بصوت عال:

* * *

رغم كل شيء، مازالت تحبه..

ورغم كل شيء، مازال يراها «كل شيء»..

كانت لا تشعر بأي نقص في الاهتمام منه بسبب العمل، كما هي العادة، ولكن تلك المعلومة لم تكن مفرحة بالنسبة لها، لأنها تعني ببساطة أنه لا يعمل بجدية!..

يسجل حضوره، يجلس قليلاً محاولاً الهروب من أي تكليف من المدير، ثم ينصرف مسرعاً في موعد الانصراف..

تحدثه، فيرد عليها بفلسفته، التي بدأت تكرهها الآن:

- الشغل ده بنشتغله عشان نجيب فلوس عشان ننسب.. انا معاها فلوس.. ومبسوط.. انكد على نفسي بالشغل ليه؟

تعرف أن منطقته صحيح لكن ملتو.. العمل ليس مجرد نقود.. العمل مسئولية.. ارتقاء في الروح البشرية ليتعلم كيف يلتزم ويضغط على نفسه، كي يصيح رجلاً، قالت له ذلك، فقال بسفسطائيته، التي كانت فيها مضى

سحره، هادنا:

- وهو تسجيلي غياب وحضور وتصميم شقة وفيللا لواحد ثاني
مستخسر حتى يحلم بشقته.. ده الي هيخليني راجل؟..
ثم يقول بعد تنهيدة، كعادته في إثبات وجهة نظر ما:

- م الآخر يا (علا).. انا بعد الي شفته في حياتي مش مستعد اجي على
نفسي عشان أعمل حاجة أنا مش عاوزها.. الدنيا دي ضيقة وصغيرة
وتخفق.. مش هاقدر أجبر نفسي على حاجة أنا مش حاببها.. انا أجبرت
نفسي على حاجات كتير قوي..
قالت صارخة في غيظ:

- أنت كل شوية تقول لي «بعد الي شفته» و «بعد الي جرائي».. ومش
بترضى تقول ايه الي حصلك.. أنا قدامك كتاب مفتوح وماعرفش أي
حاجة عن ماضيك.. وكل ما أقول لك «كل الرجالة بيقلوا كده».. تقولي
بكرا تعرفي.. ناوي تعرفني امتي؟

ليقول لها برومانسية تجعلها تنسى نفسها في ثوان:

- أول يوم في شهر العسل..

لتبتسم هي رغبا عنها، ثم تتذكر أنها غاضبة، فتقول:

- بس اوعدي انك تحاول تسبب الرسم شوية.. وتركز موهبتك دي في
التصميمات.. ماشي؟

ليقول هو بعد صمت:

- حاضر.. هاحاو.. الخ الخ الخ..

* * *

والنفت إليهم (أسامة) قائلا:

- معلىش طولت عليكم في قراية الختة دي.. بس أنا شخصيا بحب (ج) جدا..

جاملوه بابتسامة، فقال هو:

- كل واحد أو واحدة بعد الجواز، أو حتى في خلال العلاقة أو الخطوبة.. بيحاولوا يخلّوا الطرف الثاني يفكر زيهم.. يتعود على طريقتهم في الحياة.. يتعود على أسلوب تربيتهم وطريقة لبسهم وأكلهم وود.. حتى في جملة شهيرة الناس كلها بتقولها «مسيره يعقل بعد الجواز.. أو مسيرها تتغير بعد الجواز.. قليل قوي فينا اللي بيرضى بالطرف الثاني زي ما هو.. كل واحد بيحاول بطبع الثاني بصفاته.. والمشكلة ان الثاني لو قارح يبقى هو مش فاهمنا، أو مش عاوز يبقى معانا.. بل وأحيانا برضه الموضوع بيقلب بالحرب.. لو مابقتش زينا.. يبقى مش هنكمل مع بعض.. أخطر وأسوأ المشاعر اللي بتهدد أي علاقة هي دي.. لأننا بطبعنا، أنايين.. وبنحب كل حاجة تمشي زي ما احنا عاوزين..

وأخذ نفسا عميقا، وهو ينظر إليهم قائلا:

- أخيرا بقى.. مجموعة (د)..

ولدهشته الشديدة، لم يرفع أحد يده إلا سيدة كبيرة، فنظر لها لحظات، وقال:

- مع إحباطي الشديد.. بس اتفضل..

* * *

قالت السيدة بهدوء:

- انا اسمي (نجوى).. بس أنا مش لاقية أي ربط بين قصة (د) وبقية القصص.. أيه فائدة أن احنا ندرسها أو نقراها؟.. هو حب الطفلة، بعد كده أمه انتحرت.. بداية المرحلة الخامسة أنه عدى عليه ستين وبقي عنده

عشر سنين.. وطول المرحلة الخامسة هو قاعد لواحدة.. باباه جاب أخ وأخت ليه، لحد ما (مروة) - اللي كبرت هي كمان - زهقت منه ومن سكوته وقعدته لواحدة.. فضلت تلعب مع اصحاب تانيين في المدرسة وهو يعيط أنها سابته.. بعد كده قالت له إنها مش عاوزة تعرفه ثاني.. وفضل هو يرضه قاعد لوحده بيعيط..

ثم استطردت:

- أراي عاوز تقنعني أن ولد صغير مر بمراحل الهييتا؟.. هو مثلاً مش فاهم ولا إحساس من اللي احنا قلناهم طول المرحلة اللي فاتت.. وكمان البنت خلاص سابته.. معنى كده أن مافيش جديد لقصته ووصلنا بيه لحد النهاية..

تأملهم (أسامة) لحظات، ثم قال بإحباط:

- يعني كلكم زهقتم من (د)؟..

أوماوا برؤوسهم أن نعم، وعقب طالب آخر:

- احنا بس مش فاهمينه..

تأملهم (أسامة) لحظات، وابتناسمة خبث كبيرة تتسع داخله، ثم قال دون أن يظهر شيء عليه:

- ماشي.. مع أنها متبقى أول مرة تحصل.. بس (د) كده كده قصته

انتهت في المرحلة الخامسة فعلاً.. بس تحت اسم إحساس يرضه، مهم جداً في المرحلة الخامسة..

وأكمل رافعا سبع أصابع:

- الملل..

وأكمل، وهو يدور حول المكتب، وقد قرر ألا يقرأ شيئاً تلك المرة:

- من غير ما نخش في تفاصيل.. هو الملل.. كل واحد بيبقى داخل

العلاقة مهتم قوي باللي جي.. أول ما يوصل لهدفه.. ويلافي أن كل اللي كان مستنيه.. طلع «عادي» شوية.. أو طلع مش بالإيهار اللي هو عاوزه.. بيمل.. بيزهق.. والملل إحساس قاتل بجد لو دخل جوة العلاقة.. لما كل الكروت تتحرق بلدي.. وتتحرق بأسلوب غلط.. ساعتها ما يبقاش فيه جديد.. مهما عملتم حاجات كتير مختلفة عشان خلاص.. كل المشاعر اتعاشت وكل حاجة اتعرفت.. ف اللي حصل مع (د) و(مروة) هو ملل غير طبيعي.. البنت مش لاقية الولد اللي يلعب معاها.. وهو مش لاقى حد يفهمه.. فهي زهقت وهو زهق.. بس اتأثر قوي انها سابتها، لأنها الوحيدة اللي كان عارف يسكت قدامها.. زي ما يقولوا في قصص الأطفال.. الوحيدة اللي من الطيبين اللي كانت فاضلة.. وهي سابتها في وسط الأشرار كلهم.. لوحده..

ثم قال بعد فترة صمت، معيدا إياهم لموضوع المحاضرة ككل:

- أنا عارف كريس قوي ان المرحلة الخامسة كانت مفاجأة.. واتصدمتم في بعض الشخصيات.. بس الصدمة دي مقصودة.. لأن نقط الضعف أو العيوب عادة بتبقى آخر حاجة تتوقعها من الشخص اللي قدامك.. مش بتستغربوا قوي لما ييجي ولد يقول، بعد قصة حب خمس سنين.. انه اكتشف أنها كزوجة كسولة جدا ومش عارفة تشيل المسئولية؟.. الناس بتبقى بتضرب كف على كف.. مين يصدق ان (أ) اللي كان نفسه يحس.. بقى شخص جبان قوي كده وخايف الإحساس الروعة ده يروح منه، فمش عارف يعيشه؟.. مين يصدق أن (ب) اللي حب (دنيا) قوي عرف يتغير عليها من وجهه؟.. ومين كان يتخيل ان (ج) اللي كان واثق من نفسه قوي كده وفاهم كل حاجة، يطلع فيه انفصام الشخصية بتاع معظم الرجالة الشرقية، ويتغير على (علا) كده؟.. بس هي دي الفكرة.. وهو ده المراد.. اللي بيحصل.. عكس اللي كل الناس بيتوقعوه تمام.. هي دي القاعدة..

العيوب هي - عادة - أسوأ نقاط الضعف التي يفضل النبي آدم طول عمره
بمحارب عشان يثبت أنها مش فيه!..

ثم ذهب للسبورة بحماس، وهو يرسم تحت كلمة المرحلة الخامسة سبعة
أسهم.. وهو يقول:

- يبقى المرحلة الخامسة هي ظهور أسوأ مشاعر في كل علاقة.. قولوهم
معاًيا..

وكتب ما يقولونه كلهم:

الامتلاك.. عدم التقدير.. الاحتياج.. الجمل.. الغيرة والشك..
التطبيع.. الملل..

والتفت إليهم غامزاً بعينه وهو يقول:

- مش قلت لكم رقم سبعة ده سحري!..

وأكمل ناظرًا للسبورة والأسهم المرسومة التي يخرج منها كل إحساس،
وقال:

- دول هم السبع مشاعر التي ممكن يهدوا أي علاقة مرت بينا.. في التي
بيواجههم كلهم.. وفي التي يقابل شوية منهم بس مش بيستحمل.. مشاعر
بتهد مش بتبني..

والتفت إليهم ثانية، والحماس يتطاير من كلماته:

- بس أحل حاجة ان زي ما في سبع مشاعر بتهد، في خمس حلول،

بس.. التي يعرف يعملهم صبح.. يعدي المرحلة الخامسة بكل عيوبها..

بدأ الأمل يطفو على عيون الطلاب، فابتسم (أسامة) وهو يكتب على
السبورة:

- المرحلة السادسة..



٦- القرار

كل ثانية يوضع أمامك اختيار بسيط قد يجعل الحياة كلها مختلفة..
وكل ثانية تختار أن تؤجل القرار خوفاً، فتظل كما أنت..

كيف أصبحت بهذا الضعف؟..

قالها (أ) لنفسه، وهو يجلس في تلك الشقة، التي اختلفت معالمها تماما..
في أحد أفلام الرسوم المتحركة الذي لا يذكره، كانت هناك تلك الأميرة،
التي ترك خلفها دائما ذلك الضوء الأبيض الساحر، الذي يجعل كل من يراه
في حالة انتشاء..

يرى (رؤى) في حياته تفعل نفس الشيء.. كلما تفعل أي شيء، ترك
ذلك الضي من السعادة..
لكنه لا يصدق..
لا يصدقها..

هو شخص اعتاد تماما أن يقتل كل ما بداخله.. أن يخلق تلك الفجوة
الصماء، ثم تنص أي إحساس كان.. حتى أصبحت تلك الفجوة أسلوب
حياة.. تعلم معها معنى «الراحة».. إنسان لا يشعر هو بالتأكيد إنسان لا
يتألم..

منذ أن ولد وهو يعلم أن الله خلق الدنيا ناقصة.. خلق البشر ناقصين..
عاش عمره كله يتعلم كيف يكون ناقصا.. وكعادة البشر كلهم، حاول أن
يداري نفسه بأن يكتمل في شيء آخر.. صدق للحظات أنه شاب مختلف،
وأنه سيجعل الدنيا تختلف بعده.. وعندما وجد أخيرا من تقبل به بجنونه
هذا، ووجد من تحبه وترغب في الزواج منه، وصدق أن الحياة بدأت

تبسم.. ماتت طفلته، بعد أن مات حب زوجته له، عندما عرفته حقا.
وأدركت أن جنونه لا يحتمل..

جلس منتظرا (روى) لتعود من عملها.. تذكر ابتسامتها البلهاء، عندما
اكتشفا بعد ليلة زواجهما أن لكل منهما وظيفة مثل باقي البشر..
لكنها تأخرت..

حاول أن يغمض عينيه، كي يسكت ذلك الهاجس المريض أنها لن
تعود.. أنها هربت من كثرة ضغطه عليها.. ذلك الألم الخفي لطفل ينتظر
أمه، التي تركته في أول يوم له في الحضانة.. ما بين أمل رجوعها وخوف
قاتل بأنها ستتركه في تلك الحضانة إلى الأبد.. شعور سخيف..

نهض ببطء، وذهب للكاسيت الكبير في غرفة المعيشة، ثم ضغط زر
التشغيل وهو يرفع الصوت لأقصى درجة..
لتتصاعد تلك النغمات الحانية..

تلك النغمات التي كانت ترقص عليها في السطح، وحدها..
كيف، رغم مرور بضعة أشهر، إلا أنك تشعر أنها ذكرى بعيدة؟
ابتسم متذكرا ذلك اليوم المجنون، يوم بدأه بالموت، وأنهاء بالحياة..
حياتها..

كيف عرفت أن تنتزعه من كل آلامه في تلك الليلة.. وكيف عرفت أن
تعيد كل الآلام في أشهر قليلة؟..

كيف تفعل كل هذا بشخص مر عليه كل ما مر؟..
تعود أن كل ما يعشقه ويريده ينتهي بشعورين لا ثالث لهما..
الندم.. والوحدة..

إما يحرم من قبل كل من يعرفه.. إما أن يؤخذ منه بلا ذنب.. لأنها في

العادة.. تعتمد على من ذهبوا وتركوه..
فكيف يصدق للحظة، ويقتنع أنها لن تذهب بعيدا؟..
هز رأسه بقوة، وهو يقول لنفسه بغضب أن يكف عن هذا..
لقد بدأت تحتق..
لكنها تأخرت!!!..
ضرب جرس هاتفه المحمول في تلك اللحظة، ليجد اسمها المحبب
لقلبه يتألق على الهاتف..
«حياة»..
رد عليها بلهفة قائلا:
- (رؤى).. أنت فين؟..
ضابقة صوت الهواء الشديد حولها، لكنه سمعها تقول بحنانها:
- اطلع البلكونة..
عقد حاجبيه متسائلا، وهو يذهب للشرفة، ويفتح بابها في سرعة وهو
يقول:
- انت تحت ولا أبه؟..
ضحكت في سعادة، وقالت مازحة:
- مش قلنتك ١٠٠ مرة ماتظلمش البلكونة وانت مش لابس حاجة
من فوق؟.. هامنع الجيران من أنهم يماكسوك ازاى دلوقتي؟.. وكيان الجو
ساقعة عليك..
ابتسم وهو ينظر للشارع يبحث عنها، ويرد عليها:
- يا بنتي انا عمري ما همّني الحاجات دي.. انت فين؟
قالت بحنان:

- ازاى بتقول علي ملاكك وبتدور علي تحت؟
رفع عينيه في سرعة لذلك السطح، ليجدها واقفة هناك، تستند على
السور بيديها وتلوح له، فضحك وجهه كله، لتقول هي:
- تعالى.. عاوزه أقول لك كلمتين..
وقالت بجدية:

- بس البس تي شيرت.. مش عاوزين تلمسك آداب..
ضحك من قلبه، وذهب مسرعاً ليرتدي شيئاً..
ذاهباً لها.. للمكان الذي رآها لأول مرة فيه..
للمكان الذي بدأت فيه حياته من جديد..
* * *
ذهب (د)، لأول مرة ناوياً أن يفعل شيئاً ما..
أن يفهم..
* * *

ارتفعت أياد كثيرة في المحاضرة، فنظر لهم (أسامة) بأسماً وقال:
- مشكلة السلطة في مصر أنها بتعمّد الواحد على عدم الديمقراطية..
أنا الدكتور هنا.. وأكيد في هدف في قصته، حتى لو أنتم لسة ما عرفتهوش..
(د) لسة ما خلصش.. انا كنت بهاودكم بس..
هبطت أيادي الطلاب في حلق، فأكمل (أسامة) بأسماً:
- بس أنا خلتيه بدري شوية.. قلت يمكن بيزهقكم عشان هو آخر
واحد..
وأكمل..
* * *

يريد أن يفهم..

مرت سنون، لم يحصها، وهو يخاف أن يسأل هذا السؤال بالذات..
كان أبوه وزوجه أبيه قد سافرا إلى بلد عربية، آخذين معها أخاه وأخته،
في رحلة أسبوعية.. في حين رفض هو بشدة، ولم يصروا هم على شيء..
فذهبوا، جاعلين أم (مروة) تسأل عليه كل يوم، وتجهز له الأكل.. فشعر أن
هذا هو الوقت ليسأل سؤاله..

ذهب لأم (مروة) وطرق بابها، لتفتح له (مروة) الباب، وما إن رآته،
حتى ابتسمت في ارتباك، فقال هو:

- أنا عاوز ماما..

فتحت الباب وهي تقول:

- اتفضل..

أصبحت جميلة حقاً.. بدأ جسدها تظهر فيه بوادر أنوثة.. أصبحت
رفيقة مؤدبة، تتكلم بصوت خفيض.. أصبحت لا تهتم بالـ(أناري) وتهتم
أكثر بالفساتين والـ(باربي) والأفلام العربية التي تأتي بعد كل صلاة الجمعة..
أصبحت في تلك الحيرة، التي لا تدري فيها على أي شيء تحاسب.. يريدون
منها أن تكون كبيرة، فتجلس مع الكبار المملين، ولا تفهم ما يقولون..
وتعاقب إذا بدت بلهاء في أي وقت، تركض وتلعب أو تقول شيئاً أحق..
أصبحت فتاة تبلغ الثانية عشر من العمر.. مثله تماماً..

جلس على مقعد في الصالة، ذلك المقعد الذي كان موجود منذ القدم،
لكنه لم يعبأ بأن يجلس عليه.. الأرض كانت تبدو أكثر إغراءً، بكل تلك
الحرية واللعب الكثيرة.. لماذا يشعر أنه الآن مقيد؟.. لا يدري..

خرجت إليه أم (مروة) مبتسمة، لاحظ أنها ارتدت إسدالاً واسعاً، لم
يعتد أن يراها به.. أدرك أن ذلك الشارب الخفيف الذي يحذ شفتيه أصبح

شيئا كالجريمة، يحذر الناس منه ويخافونه.. حتى أبوه أصبح يتشاجر مع زوجته كثيرا، لأنها ترتدي ثيابا غير لائقة وهو موجود.. مع أنه لم يفكر ولم يلحظ أي شيء من قبل.. لكنه يشعر باختلاف الدنيا حوله.. أصبح من حوله لا يعاملونه كطفل.. ولا يعاملونه كرجل.. فقط.. يخشونه ويتجنبونه حتى تمر تلك المرحلة..

مرحبا بك في مرحلة قتل الطفولة، بكل قيمها ومبادئها وأحلامها..
لمرحلة الدنيا الحقيقية..
الواقع..

تنحنح لحظات، وهو يقول بصوت خجول:
طنط (منى)، أنا كنت عاوز أسألك سؤال.. بس تمهاوييني عليه
بصراحة..

قالت (منى) بابتسامة طيبة:
- أوامرني يا حبيبي.. دا انت ابن الغالية..
نظر لها، وقد شجعت كلمتها على أن يلقي سؤاله بسرعة:
- هو حضرتك تعرفي ليه ماما انتحرت؟..
ولم تتوقع (منى) ذلك السؤال.. لكنها، منذ أن ماتت والدته، وهي تريد أن تخبره بكل شيء.. وهو بلغ من العمر ما يجعله يفهم.. أو هذا ما أقنعت نفسها به..
لذا، ودون أن تضيع وقت، وكأنها ترمي حملا من على صدرها..
بدأت تروي..

* * *

نظر (ب) لتلك العصي المعدنية، التي أخبروه أنها ستصبح رفيقة كفاحه طوال عمره..

اتكأ عليها رغم ألمه الشديد، وتحذيراتهم الشديدة، لكنه نهض.. ملّ من الفراش.. ملّ من الألم.. ملّ حتى من نفسه..

خرج للشرفة، التي افتقدها حقاً.. في حياته، لم يكن يتوقع اللحظة أن يفتقد مكاناً يبعد عنه بأمّtar قصيرة.. لكنها الحقيقة..

وجد هناك (سارة)، التي ما إن رآته، حتى ذهبت مسرعة لتسند.. وضع يده على كتفها، وذهب بها حتى السور في صمت.. لم تعد تتحدث عن شيء، ولم يعد هو قادراً على الكلام.. في المستشفى، ليس هناك ما يقال.. كل المشاعر معروفة ومفهومة، لدرجة السذاجة..

مضت عشر دقائق، وكل منهما ينظر للنيل ولا ينطقان بكلمة.. هل هناك داعٍ للكلام؟.. طوال عمره يكره هؤلاء الذين يحاولون أن يقولوا أي شيء في العزاء.. في النهاية لا ينطقون إلا كلاماً محفوظاً، ولا يقولونه إلا ليشعروا أنهم أتموا واجباً ما.. ليشعروا بالرضا عن أنفسهم.. لكن ذلك الذي مات له شخص ما.. لا أحد يشعر به، ولا حتى يقترب من الفهم..

شعر بالآلام مُلحة.. ذلك الوجد الذي يجذبك لأسفل، كطفل سخيّف يريد أن يذهب للحمام.. يظل يجذبك وينادي عليك، حتى تطيعه مرغماً.. لكن عناده أبى أن يستسلم لذلك الوجد.. فقط بدأ يتصيب عرقاً، وبدأت قدمه بالارتجاف السريع عند فمّذه. شعرت (سارة) به، فنظرت له، لكنها لا تتكلم.. وارتاح هو لذلك.. الصديق الحقيقي هو الذي يعلم معنى صمتك، ويظل جانبك دون أن يفتح فمه..

سمع خطوات ثقيلة تأتي من خلفه، ثم يد تمسكه من كتفه، وصوت (عبد الحميد) يقول في حنان:

.. أنا جبتلك كرسي.. اقعد شوية..

لم ينطق بكلمة أيضاً.. ورغم كبرائه جلس.. مهزوماً لذلك الألم جلس.. لا ينظر لهما، ولا هما ينظران له.. فقط ينظر للنيل، الذي لا يستطيع

الاستمتاع به الآن، من تلك القضبان الحديدية للسور.. لأن ذلك المقعد -
ككل المقاعد - مصمم بحيث لا يد له من أن ينظر من أسفل.. من خلف
تلك القضبان..

كانت (دنيا) تتصل به من الحين للحين.. تطمئن عليه، كنوع من أنواع
تأدية الواجب.. شعر أنها أدركت أخيراً ما أدركه هو بعد العملية مباشرة..
هو يحمل من المسئولية والاحتياج ما لا طاقة لها به.. لكن برومانسية النساء،
لا يدركن ما يدركه الرجال بعقولهم مباشرة.. لن تستطيع التحمل.. العلاقة
القصيرة انتهت، بآمالها وتطلعاتها ورومانسياتها.. كل شيء ينتهي، لكن
بيطء يكفني لكي لا يتألم أحد فيهما أكثر مما ينبغي.. فقط تظل مشكلة أن
حتى تلك الصديقة، التي يحتاجها الآن بشدة.. غير موجودة الآن، فقط
لأنها شاركت الحبيبة نفس الجسد.. وهذا ظلم..

حذر به أنه اختار أن يأخذ أهله في مرحلة مبكرة.. حمد الله أنه رحمهم من
تحمل ابن شبه معاق طوال حياتهم.. حمد الله أنه لم يشعر باليتم إلا في لحظات
قليلة، وعندما ماتت أمه بالتحديد.. لكن بعد ذلك، وبذلك النقود الهائلة
التي تركوها في الميراث والتعويضات والتأمين، ضمن مستقبله لعشرين
سنة مقبلة.. فقط بقي عليه سنة، حتى يصل لسن الثامنة عشرة، ويفتح
البنك اعتياده لأنه وصل لسن الرشد..

ضرب الهواء وجهه بشدة، فشعر بالحياة قليلاً.. حاول أن يتسم وأن
يلقي دعابة، لكن لم يجد بداخله الروح، لذا نظر لـ (عبد الحميد) قائلاً في
لهجة جادة:

- (عبد الحميد).. هات سيجارة..

نظر له (عبد الحميد) في شفقة، فنظر له (ب) بصرامة.. لا يريد تلك
النظرة أن تبدو على وجه أحد من أصدقائه.. قالت (سارة) في قلق:
- له كده.. أنت قلت إنك بتكره كل اللي يشربوا سجائر.. هتشرّب له؟

لم ينطق بكلمة، في حين ناوله (عبد الحميد) سيجارة في هدوء، وهو يقول له (سارة):

- ماتحاوليش معاه.. هي لما بتطلب بتطلب.. ولو منعناه هيروح يجيبها من برّة..

قالت (سارة) في حنان أمومي:

- لا... مش هايقدر يروح يجيبها..

نظر لها (عبد الحميد) في لوم فأدركت أن كلمتها غير ملائمة تماماً، في حين لم يبدو على (ب) أنه سمع وهو يأخذ السيجارة، وأشعلها بقداحة (عبد الحميد)، وهو ينظر له (سارة) متحدية، ويسحب نفساً عميقاً..

ورغم كل التوقعات، ونظرة (عبد الحميد) الساخرة، إلا أنه لم يسعل، ولم يبد حتى أنه تأثر بشيء..

نظرتة أعطت (سارة) إجابة سؤلها في صمت.. أنه بدأ يكره نفسه..

نظر (ب) للسيجارة متأملاً لحظات، بعد أن أخذ أكثر من نفس، ثم قال بهدوء:

- تفتكروا السيجارة بتحس بأيه لما احنا بنولع فيها ونقعد نسحب من مؤخرتها كده؟.. مش ده تخرش برضه؟..

ورغم كل تلك الكآبة، ضحك (عبد الحميد)، وابتسمت (سارة).. واستعاد (ب) جزءاً، ولو صغيراً من شخصيته.. ابتسامة!..



نظرت (علا) لـ(ج)، الذي كان يجلس منتظرا في ذلك الكافيه..
في كل مرة تراه فيها تشعر بدقات خفيفة تعلو في قلبها، وهي حتى الآن
لا تستطيع أن تدري لها سببا..
جلست جانبه وليس أمامه تلك المرة، فابتسم دون أن يعلق، لتقول هي
محاولة تخفيف الجو:

- هو انت دايمًا بتيجي قبلي كده؟.. انا النهارده بالذات جيت بدري
عشان اسبقك..

ابتسم ابتسامته الخائبة، التي، رغم كل شيء، مازالت تراها ساحرة، وهو
يقول:

- انا دايمًا باجي قبل معادنا بنص ساعة.. عشان افضل احلم بيكي خد
ماتيجي..

رغم أن كلامه يبدو مبالغاه، إلا أنها تصدقه، لأنه يقوله بإيمان حقيقي،
فابتسمت في حجل، ثم تذكرت ما أنت من أجله، لتتحنن قائلة:

- نتكلم جد بقي..

نظر لها بتركيز، فقالت:

- احنا الدنيا بيتنا بدأت يبقى فيها تنشنة كثير.. وانت عارف ان خطوبتنا
خلاص فاضل عليها يومين.. انا ما عرفت حاجة عنك وعن ماضيك..
وبالتالي مش فاهمة أنا باضايقتك في ايه ومش باضايقتك في ايه.. فأنا مش
هامشي من هنا غير لما تفهمني.. غير لما تقول لي كل حاجة صغيرة عنك..
عشان نعرف نحل كل حاجة..

هم بالكلام، فقالت قبل أن ينطق:

- وده آخر كلام عندي.. ده حقي.. ولازم أعرف..

صمت وهو ينظر للأرض لحظات، ثم قال بابتسامة، لم تفهم معناها:

- أنا بس كان نفسي أحكيك بعد أول يوم في شهر العسل..
 أو مات برأسها أن لا في قوة، وقالت:
 - ماينفعش.. فرضنا أنك اعترفت لي أنك كنت سفاح أو حرامي مثلاً؟..
 ضحك في سخرية، فصاحت فيه:
 - مش تتريق عليّ.. أنا فعلاً لازم أعرف..
 ثم قالت بغیظ:
 - وأول حاجة لازم أعرفها.. انت عرفت ازاي اني كنت هانتحر؟..
 انتهى من ضحكته، ثم نظر لها نظرة تعشفها، وقال بهدوء:
 - ماشي يا ستي.. أنا هاحكي لك كل حاجة.. بس بشرط أنك
 ماتر هقيش..
 ابتسمت في ثقة، فقال هو:
 - وعشان أقول لك عرفت ازاي.. لازم أحكي لك كل حاجة من
 الأول..
 نظرت إليه، لا تستطيع أن تمنع تلك اللهفة التي تتصاعد بداخلها..
 فأخيراً.. ستعرف كل شيء..
 * * *

صعد (أ) للسطح في سرعة، ليجدها واقفة تستند على السور وتضحك
 له..
 تلك الضحكة التي تمنوي كل أحزانه في ثوان..
 كانت السماعات تصدر تلك الموسيقى الحزينة، التي كان يسمعها في
 شقته..
 الأمل.. والألم..

كانت الشمس قد بدأت تميل للغروب، فأضفى للمكان سحرا لا يقاوم..

كمعادتها.. تخلق السحر أينما وجدت..

انجبت إليه بخطوات وثيقة، فابتسم وهو يقول:

- ايه سبب الوهم الي حاصل ده؟..

قالت وهي تسحبه من يده بسرعة به للسور، فقال ساخرا:

- هترميني من فوقه أخيرا؟..

جعلته يسند على السور بحنان ورفق، ثم وقفت أمامه قائلة بابتسامة:

- أولا.. أنا عاوزة أقول لك حاجة، مش عارفة ليه شكلك نسيته..

ومالت عليه وقبلته في فمه قبلة طويلة، ثم قالت بعشق:

- أنت جوزي.. أنت كل حاجة ممكن أكون حلمت بيها ولسة هاحلم

بيها.. انت مش عارف انت عملت فيا ايه؟.. انت جيت لواحدة بتموت

وخليتها عاوزة تعيش وعندها أمل... انت مش شايف نفسك مهم ازاي

عندي.. هافضل كل يوم اثبت لك ده لحد ما تفتح.. احنا قدامنا العمر كله..

ابتسم بحنان، فقالت هي:

- تاني حاجة.. احنا هنعزل هنا.. في شقتي أنا.. عشان ما ينفعش تفضل

قاعد في نفس المكان الي حصلت فيه كل حاجة وحشة في حياتك.. انت

حكيت لي على كل حاجة حصلت لك.. وكلها حصلت لك في الشقة دي..

ما ينفعش تفضل عايشين فيها وكل ركن فيها بيذكرك بمأساة.. لازم مكان

جديد.. لازم تبدأ صفحة جديدة فعلا مع نفسك.. ومعايا.. عشان كده

هننقل هنا في الشقة الصغيرة دي.. والسطح ده يبقى بتاعنا احنا بس.. كفاية

وجع عشان خاطري..

أعجبه الفكرة، وتعجب من أنها لم تخطر بباله من قبل، في حين أكملت

هي بنفس الحساس:

- أنا وأنت مالنش غير بعض.. وانت مش عارف يعني ايه البنت متنا لما تلاقي واحد فيه كل اللي بتعلم بيه.. رجولة وعمق وعشق ورومانسية.. انك بتفهمني من غير ما تكلم.. انك حتى في عصيتك حنين علي.. انك محسنني أنك أبويا وأخويا وجوزي وابني.. البنت متنا لما بتحص أنها لقت فارس أحلامها.. بتفضل طول عمرها كل اللي بتفكر فيه ازاي تسعده.. ازاي ترضيه وتحبيب له النجوم لو يطلبها.. بس.. تلاقيه..

صمت ثماما، وهو يتأمل كل تفصيلة فيها.. ضحكتها، غضبها، عفويتها، وعقلانيتها، براءتها وعمقها وسذاجتها..

يعشقها بكل تناقضاتها..

إنها كل ما يعلم به أيضا..

قالت هي، تكمل ما بدأته:

- فانا هاتفق معاك اتفاق..

نظر لها مبتسما، لتقول هي بخجل من نظراته العاشقة:

- انا مش هامشي.. ولو في أي إحساس بالبعد أو أني ممكن أهرب.. هاقولهولك.. انسى كل الحاجات الوحشة.. وافكر أني وعدتك أني هاريحك واقول لك كل حاجة.. فماتخافش.. وثق في قوتي.. وانا والله وعد هاقول لك على كل إحساس صغير هاحسه.. ماشي؟

قال هو وهو يرفع حاجبه بتحد:

- في مقابل؟

قالت هي بضحكة مشرقة:

- في مقابل أنك تفضل تحبني زي مانت بتحبني.. ده أساسي..

ثم أكملت بهمس:

- بس الأهم.. أنك تستحملني الفترة اللي جاية وتراعييني قوي.. وتأخذ
بالك على ابنتا قوي..

نظر لها لحظات في عدم استيعاب، فقالت هامسة ودموع الفرحة تتلألأ
في عينيها:
- أنا حامل..

انفض جسد (أ) وهو يعتدل في وقفته، وينظر لها بذهول، فضحكت
هي لتقول بسعادة:

- أظن مافيش أكثر من ده إثبات اني مافضل معاك العمر كله.. انت
لبست يا معلم..

لم يصدق، وداخله فرحة طاغية، جعلته يحملها ويدور بها حول نفسه،
وهو يصرخ في سعادة، فضحكت هي بصوت عال، ثم صرخت فيه:
- كفاية.. أنا دخت..

أنزلها أرضا وهو يضحك، لتقول هي بصوت لاهث:
- والدوخة للحوامل مأساة.. ممكن تلاقيني رجعت في وشك دلوقتي
حالا..

ضحك بصوت أعلى، وقال:

- أنا باعشقك..

لتذهب هي وتضع رأسها على كتفه، وتحتضنه بحنان قائلة:

- وأنا باموت فيك..

ضمها له أكثر، وأغمض عينية، تاركا كل إحساس رائع يتخلله بهدوء
شديد..

شعر أن حياته كلها.. بكل ما مر به.. كان يجهزه لتلك اللحظة فقط..

ليجعله يعرف قيمة تلك اللحظة..

قيمة حضنها..

ظلا هكذا، حتى هدا قلباهما، فتركت حضته لتنظر له، ليقول هو بحماس
غامزا بعينه:

- ايه رأيك أتجنن آخر مرة؟

قالت له بقلق لا تدري مصدره:

- يعني ايه؟

ذهب هو مسرعا، ليقفز فوق السور، ويحاول الوقوف عليه، فصاحت
هي فيه تلك المرة:

- انت بتعمل ايه؟.. انزل..

قال هو، وهو يضحك:

- ماهر أنا لازم أحتفل.. النهارده عرفت أني هابقى أب..

ونظر لها بحنان مكملًا:

- وأول مرة ما احسش بوجع بجد..

قالت بقلق غريب:

- بس انزل بس، عشان أنا خايفة عليك..

ضحك هو بسعادة، وهو يترنح فوق السور محاولا إيجاد نقطة اتزان،
ثم قال:

- آمال فبن أيام زمان لما كنت بتمشي على السور من غير خوف؟..

قالت بخوف حقيقي، وهناك شيء داخلها يقول إن الأمور لن تسير على
ما يرام:

- ما كنتش لاقيتك..

نظر لها لحظات، متذكرا ذلك الموقف عندما كان معكوسا.. نظر لها بعين

تقطر عشقا، وقال:

- أنا بحبك قوي..

نظرت له بحنان...

ذلك الرجل الذي جعل كل شيء سهلا وبسيطا..

رجل عرفت معه أن كل ما كانت تحلم به في حياتها، موجود في ابتسامة
رجل متألم...

هو لا يعرف قيمته..

علمته الحياة أن ينسى كل شيء عنه ويعاقر في درئ المصائب التي تهبط
على رأسه كل يوم..

لكنها لم تعلمه أن يدرك أنه رجل قوي يحارب كل يوم من أجل إسعادها،
وتشعر في حضنه أنها أضعف من ريشة...

رجل حنون، يضحك لها ويتشبث بها كطفل ضائع يحنى بأمه...

لم تمنع نفسها من ابتسامة حنان، وهي تنظر له وهو يحاول أن يقف دون
أن يهتز مثلها، بسعادة طفل برئ وجد تحد في لعبة جديدة... ثم ينظر لها
بحنان الدنيا كلة شاردة في عينيها القلقة والحنونة..

نظرت له لحظات بعشق ثم..

لم يجد مركز اتزان من سروده..

لذا... وسط نظرتها العاشقة.. وجدته يختفي من أمام أعينها..

يميل جسده للوراء، وهو يلوح بيده في محاولة للاتزان..

لكنه لم يفلح..

نظر لها بذعر لحظات.. مد يده كي تمسكه، لتتحرك هي محاولة اللحاق
به، لكن لم تكن سرعتها كافية..

وهوى..
بتلك القسوة.. هوى..
كان هناك أمامها في لحظة.. ثم اختفى..
بتلك البساطة القاتلة..
سمع صرختها، لكنه لم يفهم معناها..
مرت حياته كلها أمام عينيه في ثوان معدودة، وتوقفت كلها في النهاية
عند صورتها..
ورغم كل شيء..
ابتسم..

* * *

ثم يسأل نفسه السؤال الأهم..
هل تريد أن تخلق حقاً؟..
هل تريد أن تشعر كأنك طير بلا أي قيود أو جاذبية؟
أم أنك تريد تلك النهاية السوداء؟

* * *

السقوط الحر..
ما الجديد فيه؟..
منذ أن خلقت وأنت تسقط سقوطاً حراً..
كل ما ربيت عليه.. كل ما نعشقه.. كل أخلاقك وأحلامك و«كمالك»..
يتناقض تدريجياً حتى لحظة الاصطدام الأخيرة وهي الموت!..
*

* * *

تأمل وجهها في السطح، وهي تنظر له برعب، منادية إياه باسمه في
ذعر..

تأمل دموعها، التي تتساقط من عينيها محاولة اللحاق به..
وكان الدموع ستنفذه!..

لكنه لم يكن يريد تلك النهاية...

كل ما ظل يبحث عنه هو ذلك الشعور بالسقوط الحر..

بالحرية والانطلاق وانتهاء الوجع..

لكنه شعر بكل شيء..

دون أن يسقط..

اللعنة الله على الدنيا الساخرة؟...

ملا عينيه بوجهها الذي سحره..

ثم أغمض عينيه..

وهمس «بحبك»..

ولم يدر بشيء بعدها..



قال (أسامة)، وهو يرى دموع الطالبات، لكنه يتجاهلها عمداً وهو يعد
المشاعر بيديه:

- الاحترام.. الاحتواء.. الصراحة.. التضحيات.. الصفقة..

نظروا إليه في عدم فهم، فقال هو بسرعة، ليتشلهم من تلك الكآبة:

- هي دي المشاعر والحلول اللي بتقف قدام أي مشاكل في الدنيا..

اللي بتقف قدام مشاكل المرحلة الخامسة كلها.. ازاي تعرف تحترم مشاكل

وعيوب الي قدامك وماتحاولش تغيّرھا.. ازاى تعرف تحتويه من غير ما تحسسه بالذنب.. ازاى تعرف تصارحه وتكون صادق معاه في مشاعرك السلبيه والإيجابيه.. وتعرف تضحي أو تتنازل عن ايه فيك، عشان تعرف تسعده وتلاقى حل في العلاقه.. وازاى تعمل صفقه.. قصاد كل حاجة تضحي بيها، هو هيضحي بحاجه في المقابل.. عشان تعرفوا توصلوا للنقطه تلاقى.. تعرفوا توصلوا للنقطه تفاهم..

وصمت قليلا وهو يقول في حماس:

- الكلام سهل قوي على الورق.. بس تنفيذه من أصعب ما يكون.. أنا عارف أنكم دلوقتي حاسين أني عامل زي الشيخ الي مهما اشتكيت ليه من مشاكلك، يقول لك لازم تصلى.. الحل تقليدي ومافيهوش جديد.. بس هي المشكله الي في زماننا دلوقتي أننا نسينا كل ما هو تقليدي.. الحلول دي هي الخلاصه.. بس محتاجه اتنين بيحبوا بعض قوي، عشان يعرفوا يتعبوا للوصول للحلول دي.. ربنا خلق كل واحد فينا بعقده ومشاكله ووجعه وقرفه.. وخلقنا في مجتمع مقرف أكثر.. ماحدش بينكلم.. ماحدش بيحاول يفهم.. فبنوصل لنقطه الفراغ.. أو نقطه الرجوع، عشان نرجع لنفس الدايرة ثاني من المشاكل من غير ما نحل.. الي مش هيعرف يعمل الحاجات دي بيستسلم للواقع بتاعه.. وبيستسلم لنتائج، الي عادة بتبقى ملل وفتور وكذب وخيانه وطلاق..

وقال في قوة:

- أحب أقول لكم ياساده أن كل الي جرب حاجه زي كده وماعرفش.. يبقى هو مش عارف يحب.. لو الطرف الثاني ماالتزمش أو ماحاولش أصلا.. يبقى الطرف الثاني مايحبش.. الحب الحقيقي هو الحب الي كل الناس بتتعب فيه قوي كل يوم وكل ثانيه.. عشان يعرفوا يوصلوا للنقطه تلاقى تخلي الحياه «شبه» حلوه.. لأن ببساطه شديده.. الحياه عمرها ما بتبقى

حلوة.. بس بتبقى أحل مع حد مقدّر وجودك في الدنيا..

ثم أخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يقول:

- المرحلة السابعة هتبقى مختلفة تمامًا..

قاطعته إحدى السيدات الباقيات:

- مرحلة سابعة ايه بقى.. مش باقي يا حبة عيني غير (ج) و(د)..

ابتسم (أسامة)، وقال بهدوء:

- المرحلة السابعة هي مرحلة النهاية.. إذا كان فعلا كل شيء هيتتهي

ولا هيكمل.. القرار ده من أصعب المراحل.. من أصعب الأدوات.. في

ناس بتبقى جبانة جدا.. لدرجة أنها ممكن تكمل حياتها كلها في علاقة جواز

فاشلة عشان مش عارفة تقرر.. في ناس بتنفصل لأنها مش عارفة أصلا

تخارب.. المرحلة السابعة هي خاتمة المراحل كلها..

ثم غمز بعينه وهو يقول:

- مش ملاحظين أن احنا طول الوقت بتتكلم عن (ج) من وجهة نظر

(علا).. من إحساسها ناحيته؟.. انا اتسأل في محاضرة قبل كده سؤال

مهم.. مادام (علا) هي البطلة.. ليه ماتبقاش هي (ج).. أو يعني نرمز لها

هي بالحرف.. ليه مصممين نرمز للشخص اللي مش عارفين حاجة عنه

بالحرف (ج) كأن هو بطل الحكاية..

ثم أكمل:

- المرحلة السابعة بطلها هيبقى (ج) بس.. وهنعيش الدنيا من وجهة

نظرة هو.. عشان نعرف ليه..

قال أحد الطلاب:

- بس احنا ماعرفناش حكاية أم (د) أيه؟..

ابتسم (أسامة) ابتسامة خبيثة وهو يقول:

- مش انتم اللي قلتم إنكم زهقتم منه ومش فاهمينه؟.. انا هارحكم منه
المرحلة دي عشان نركز في المهم..

كتموا غيظهم الشديد تلك المرة، ربما لاقتراب النهاية، فقال (أسامة)
ناظر الساعته:

- فاضل نص ساعة من المحاضرة.. عدى خمس ساعات ونص..
ووصلنا للنقطة دي.. لأهم قرار في القصص.. (علا) لما تعرف كل حاجة
عن (ج).. نتكمل ولا لا

كان يحاول أن يضيفي أكبر قدر من الحماسة والتشويق، لكنه وجد
وجوههم مازالت عابسة، بل وتريد الخلاص، شعر بذلك الخوف الغريزي
الذي يأتيه في نهاية كل محاضرة.. هل استفادوا حقاً، أم يشعرون الآن أن كل
أموالهم ذهبت هباءً؟..

قال، وهو يكتب على السبورة تحت كلمة (هيبتا):

- المرحلة السابعة والأخيرة.. النهاية..



۷- هیبتا

لم يكن يتخيل أنه سيحكى كل شيء بتلك البساطة..
لا يدري لماذا؛ لكنه كان يتخيل أنه سيحكى سرّه هذا في موقف رومانسي
أكثر.. وسط تحضير ملائم وموسيقى هادئة.. وتشويق أكثر..
نظر له (علا)، التي مازالت ترتدي حجابها الرقيق، بعينين واسعتين
تأمله، منتظرة منه أن يحكي..

قال بسخرية، مدركاً أنها محاولة فاشلة:

- مش عاوزاني ارسـم لك حاجة طيب؟

نظرت له نظرة صارمة، فابتسم في هدوء..

إنه حتى لا يعلم من أين يبدأ..

نظر لها لحظات ثقيلة..

هناك أشياء نحسها من داخلنا.. مصدرها مجهول ولا نفهمها..

ذلك الشيء أخبره أن (علا) ليست هي الفتاة التي يريد أن يحكي لها..

هناك شيء ما.. غير صحيح..

غير مكتمل..

لكنه يراها زوجته..

رأى فيها ما سحبه من دنياه كلها، وجعله يريد أن يخطفها أيا كان الثمن..

لكن شيئاً ما ظل يلح عليه.. أنها ليست هي من يستطيع أن يأتئنها على كل شيء..
لكنه كذب نفسه..

نظر لها، ناسياً كل غوافه، وهو يشعل سيجارة، فنظرت له لائمة، لأنه وعدّها ألا يشرب سجاائر أمامها ثانية. لكنه لم يهتم، وقال بهدوء، ليخرج صوته عميقاً كما اعتاد:

- انا عاوز أحكي لك شوية عن أمي..

* * *

قال (أسامة) بصوت عالٍ:

- النهايات... والبدائيات...

* * *

قال (ج) بصوت متزن:

- أنا أمي الله يرحمها.. كانت أعظم أم في الدنيا.. انا عارف ان كل الناس بتقول كده على أمهم.. بس أنا أمي كانت مختلفة.. كانت بتعاملني غير أي حد.. أمي وهي شابة كانت تربيتها صعبة قوي.. عايشة في بيت متحفظ.. مش عارفة تعيش حريتها.. مش عارفة تفهم أصلاً يعني ايه قيود.. كانت عايشة في بلد من بتوع الفلاحين، مش فاكتر هي ايه بالظبط.. المهم.. هربت من البلد مع واحد بتحبه.. وكانت علاقة الحب دي اتولدت في ظروف بنت كلب.. بس حبراً بعض قوي.. لقوا أنفسهم في بعض.. وعلى أيام أمي، كانت الدنيا صعبة قوي من حيث تعريفاتهم للقيم والأخلاق والحاجات دي..
تنحني ثانية ثم أكمل:

- المهم يعني.. هربت مع حبيبها ده.. سافروا برة البلد خالص.. راحوا أمريكا وقعدوا هنالك تلت سنين في قمة العشق.. هي اتعلمت في جامعة

هناك.. وهو كان أكبر منها فاشتغل شغلانة كويسة.. في السنة الرابعة بعد ما تخرجت.. سابها.. من غير أسباب.. من غير أي حاجة.. سابها.. اداها فلوس كتير قوي وقال لها ترجع مصر.. رجعت وهي متدمرة.. عشان تكتشف وهي في مصر أنها حامل..
وأشار لنفسه بأسها:

- في..

اتسعت عينا (علا) في دهشة غير مصدقة، فقال هو بسرعة:
- هما كانوا متجوزين هناك.. انا مش ابن حرام يعني ماتلقيش..
قالت له:

- أكيد أنا مش قصدي كده.. انا مستغربة أني ما عرفتش أي حاجة خالص كده..
تنحنح (ج) قائلاً:

- المهم.. وهي بتولدنني حصلت مشاكل مش عارف ايه هي.. وعرفت أنها مش هتخلف تاني.. بدأت تعيش حياتها واشتغلت بشهادتها اللي من برة، وهي بتراعييني وبتكافح معايا وبتعشقني.. كل حياتها كانت ليّ بجد.. لحد ما قابلت راجل متدين حبها قوي.. عرف ظروفها كلها.. وأصر أنه يتجوزها.. وهي حبه جدا.. فوافقت.. وصاحبته كانت جنبها شقة فاضية، فأخذوها إيجار قديم.. عشان أكبر أنا في بيئة صحية جدا.. والراجل بيعاملني كأنه أبويا فعلاً.. أنا بحبه لحد دلوقتي وباحترم ذكره جدا.. وعابش من خبره الصراحة.. الله يرحمه..
قالت في خفوت:

- الله يرحمه..

أكمل (ج)، وهو مازال يشعر أنه يحكي للشخص الخطأ:

- لحد ما بقى عندي ٨ سنين، وكنت ساعتها بحب بنت الجيران زي أي طفل.. كان اسمها (مروة).. المهم.. رجعت من عند جارتنا عشان ألقبها منتحرة.. قطعت شريانها بسكينه..

شهقت (علا) في ذهول، ثم تحولت ملامحها لشفقة، في حين أكمل هو:
- لحد دلوقتي ماحدش عارف هي انتحرت ليه.. ممكن عشان جوزها كان ملتزم شوية وفرض عليها قيود كتير قوي.. ما كانتش بتنزول ولا عارفة تفكر بحرية.. وهي واحدة الحرية بالنسبة لها حياة.. ممكن عشان مش عارفة تنسى أبويها لحد دلوقتي.. المهم.. الراجل فضل يعاملني معاملة كويسة جدا، وفضل بيعاملني زي ابنه، لحد ما التجوز ثاني وخلف من مراته ولد وبنت زي العسل.. والعيشة بدأت تستقر.. سافروا للسعودية أسبوع، عشان وهم راجعين تقع بيهم الطيارة.. ويستشهدوا كلهم..

شهقت (علا) مرة ثانية، شهقة ألّت (ج) أكثر، فقال بسخرية يتقنها عندما يتألم:

- انا نحس قوي أنا عارف..

ربّت على يده في شفقة، فأبعد يده لأنه يكره الشفقة، وقال ناظرا لها:
- ودي إجابتي عن سؤالك.. ازاي عرفت انك انتحرت قبل كده.. انا وانا صغير كنت بشوف عين أمي كل يوم ومش عارف هي حزينة قوي ومخنوقة قوي كده ليه.. الكسرة اللي في العين اللي ماحدش يعرف يوصل لها إلا اذا كان مات قبل كده أو جرب الموت قبل كده.. شفتك.. كأني شفت عين أمي قدامي.. حتى في رسمتي ليكي على المنديل.. كنت بارسمها هي.. مش أنت..

ابتسمت في حزن، وهي تتذكر وجهه وهو يرسم ذلك الرسم..



نظرت (مروة) لذلك العريس الذي جاء لها من طرف أحد الأقارب
من بعيد...

في حياتها، لم تعرف الا كيف تكون طبيعية...
أحلام بسيطة...

التفوق الدراسي، ثم الجامعي، الالتزام في الدين، العمل... انتظارا
لتلك اللحظة التي أشعروها أنها أهم من الحياة ذاتها..
أن تجلس أمام عريس يبدو مرتبكا، يبدو عليه الطيبة والحنان...
يصلي... ويعمل مهندسا في شركة كبيرة...

لا تدري لماذا تذكرت (د).. وكيف تمت أن تعود لأيام البراءة وعدم
التفكير في كل المسؤوليات التي ما أن تنتهي من واحدة يظهر لك الاف
المسؤوليات الجديدة التي تثقل...

لكنها نظرت للعريس متجاهلة أفكارها وذكرياتها... وابتسمت..
شعرت بقبول بسيط له، جعلها تنظر لأمها في نظرها فهمتها أمها على
الفور، وابتسمت في ارتياح..

معلنة بداية دائرة جديدة في حياة (مروة)...

* * *

قال (ج) في ابتسامة:

- كملت دراستي عادي جدا.. الورث اللي سابه أبويا والتعويض
والتأمينات كانوا باسمي أنا وأخواتي... ولأن أخواتي ماتوا معاهم ورثت
انا الجزء الأكبر.. تحت رعاية أم (مروة) لحد ما أبلغ الـ ١٨ سنة.. الدنيا
بالنسبة لي ساعتها، عشان سني ماكنش مستحمل اني أفهم قوي.. الدنيا
كانت بسيطة.. كونت في المدرسة أصدقاء كثير قوي وكنت بالعب كورة

حلوه.. لحد ما لقيت أن في حاجة واجعاني قوي.. عشان بعد الكشف..
يطلع عندي ورم حميد، بيضغط على العمود الفقري بين الفقرة الرابعة
والخامسة..



تأملت (دنيا) ذلك الشاب الذي ينظر لها دائها...
كانت تعشق الرسم.. لذا دخلت كلية فنون جميلة... مصممة أن تبدأ
حياة جديدة بعد ذلك الجرح الذي سببته لـ (ب).. أو سببه هوذا...
لم تفهم حتى الآن كيف لم يقدر ظروفها..
كيف أغلق كل شيء في وجهها وتركها في لحظات قليلة.. لم يساعدها
بعدها أبدا..

كانت تبكي طوال الوقت من ذلك الألم في قلبها..
لكنها تعترف أنها شعرت ببعض الراحة..
(ب) كان به الكثير على أن تحمله واحدة لها أحلام مثلها..
طردت تلك الأفكار من رأسها، عندما وجدت ذلك الشاب يتجه إليها
في تردد.. وويقف أمامها قائلاً:
- ازيك؟... انت أول سنة؟
أومأت برأسها أن نعم، وهي تبسم..
ابتسامة نسيت كل شيء عن أحلامها، ومتذكرة فقط كم تتشابه ابتسامته
ذلك الشاب بابتسامته..
(ب)..

مثيره مشاعر لا تدري عمقها...



وأكمل (ج) بابتسامة، كأنها يتذكر قفزة لطيفة وهو يشعل سيجارة أخرى؛

- عملت العملية عند دكتور مشهور قوي.. قعدت في المستشفى شهرين تقريباً.. وحصل ان الدكتور أصاب أحد الأعصاب الطرفية.

ثم أكمل، كأنها يستمع من كتاب قراءة:

- «فأصاب الطبيب الأعصاب الطرفية اليسرى، مما أدى إلى الشلل في عضلات الساق اليسرى».. أنا حافظ التقرير ده..

نظرت له في عدم فهم، ثم قالت في استنكار

- انت قصدك انك بتعرج؟..

نظر لها وهو يتوقع منها ذلك السؤال.. فالآن قد تدرك هي لماذا يصر دائماً على التواجد قبلها في المكان.. تدرك لماذا عندما تقترح عليه أن يتمشياً قليلاً، كان يرفض بشدة، متعللاً بمئات الحجج.. كيف عندما كانت تركب معه العربة ينزها في المكان، ثم يتعلل أنه سيركن العربة ويأتي.. رغم أن العرجة كانت غير ملحوظة على الإطلاق، لكنه كان يخشى ذلك بشدة..

لا تعلم ان يوم المطر ذلك، كان من أصعب الأيام لأنه كان يخفي العرجة بشدة، وكان هذا يؤله أكثر من ما تتخيل هي.. لكنه نجح..

قال لها بهدوء:

- العملية دي كانت نقطة تحول في حياتي.. عارفة لما تعيشي حياتك كلها بسبب غلطة مش غلطتك؟.. المهم.. اتعرفت على ناس فرقوا معايا قوي، منهم تاني حب في حياتي (دنيا).. علاقة مااستمرتش ٣ أسابيع.. عرفت اني هاعيش عمري كله ناقص.. أو عاجز.. بدأت أشرب سجاير رغم أني كنت باكرها.. وقعدت بالظبط خمس شهور مكتش في بيتي، مش باعمل أي حاجة.. لحد ما أخذت قرار أني لازم أبدأ حياتي بجد.. دخلت تاني تالته ثانوي.. كنت بحب الرسم قوي لأنه كان بيغفركني بـ(دنيا).. فطول

الوقت في البيت كنت يرسم وانا لوحدي.. كنت لاقى نفسي فيه قوي..
ولما تقعدى ٢٤ ساعة مش بتعملي حاجة غير أنك ترسي.. بتعرفي تطوري
نفسك فيه قوي فوق ما تتخيلي... لما تيجي ان شاء الله تزوريني هتشوفي..
بقيت رسام حلو قوي.. بعرف أرسم وانا مغمض عيني.. حسيت ان في
حاجة واحدة أنا مش ناقص فيها.. بالعكس.. حسيت أني كامل ومختلف
قوي عن كل اللي حواليا..

* * *

قال (أسامة) مكررا:

- البدايات والنهايات... الدوائر المغلقة..

* * *

أكمل (ج):

- كنت مكسوف قوي من عجزى ده.. أخذت كورسات علاج طبيعي
كثير قوي، لحد ما بقت العرجة شبه مش موجودة.. بس كنت باخاف دايا
أنها تغلت مني وما اعرفش اتحكم فيها.. فأعرج قدام حد.. بقيت اجتماعي
جدا.. بقيت باحاول أعمل كل حاجة مش محتاجة مني حركة.. وصلت
للقمة.. لقمة ثقني في نفسي.. قمة تغلبي على وجعي المستمر، اللي كان
بيفضل ليالي مش نخليني أنام.. عرفت أخلق لنفسى العالم الكامل اللي باحلم
بيه..

ونظر لها بعشقه كله قائلا:

- ولقيتك..

وليكمل بهمس:

- ومن ساعتها وانا مش عارف ألاقى نفسي غير معاك..

* * *

نظرت (سلمى) لكل شئ حولها.. وهي لا تدرك شيئاً..
 هل يدّعي (أ) الألم الذي لا يطاق؟..
 هل لا يعلم أنها يتيمة أب، وعاشت عمرها كله في تحمل فراقه هذا..
 حتى وجدته؟..
 كيف يسبب لها (أ) كل هذا الألم الغير منطقي!..
 هي لم تفعل شيئاً..
 كل ذنبها أنها أحبت شخص ضعيف..
 لم يستطع هو أن يتحمل ألمها ووحدها..
 ابتسمت في سخرية وقالت لنفسها:
 - «ماكنش قد وجمي»..
 هل مرت شهوور؟.. سنة؟.. ستين؟ لا تدري...
 كل ما تعرفه أنها ترفض كل من يريد لها زوجته..
 تتظاهر أنها تحاول أن تعرفهم... لكن شئ ما مات، لا تستطيع أن تحب
 ثانية.. تلك الثقة ان الدنيا قد تكون أفضل.. أو أنها تستطيع أن تسلم قلبها
 لأي شخص اخر.. قد لا يكون «قد وجمها»..
 قد تكون تخبطت حبها لـ(أ) لأنها لا تشعر أنها تحبه على الإطلاق عندما
 استطاع أن يجرح بتلك القسوة..
 لكنها لم تتخطى ذلك الألم الذي يأكل من روحها كل يوم..
 نظرت للفتى بوك في نظرة شبه ميتة، وكتبت دون أن تدري:
 - ورقة في عرض البحر.. مكتوب عليها أنقلوني..
 ثم تبتسم ساخرة.. عندما ظهرت في البريد الشخصي لها، ذلك الشاب
 الطيب المهتم أكثر من ما ينبغي، يقول في الرسالة:

- أيه الامتيت دي؟... طمئني عليكى..

لتقول هي ساخرة:

- مافيش يا بني ما تقلقش.. عجبتني بس فحطيتها..

ولا تفعل شيئا سوى أن تتذكر..

كم كانت حقاء مثل ذلك الولد الطيب..

الذي قد يكون مناسباً الآن..

لأنه الاختيار المنطقي!

* * *

نظرت له (علا) لا تدري ما تقول..

هل صدمتها قصته لدرجة أنها أصبحت لا تعرفه؟

أقسم لنفسه أنه لن يخبر أحداً عن قصة أمه الحقيقية تلك.. ليس خجلاً منه، قدر أنه يدرك أن لا أحد سيفهمها غيره.. ذلك الألم المستمر، الذي يجعلك تموت مئة مرة في اليوم.. وتحاول أن تعيش أيضاً كل يوم..

إنه الآن صفحة بيضاء أمامها، كما طلبت.. عرفت الآن لماذا لا يعرف كيف يثق في البشر.. عرفت كيف يعرف كل شيء عنهم، لأنه عاش طوال عمره بعيداً عنهم يتأملهم فقط من بعيد.. يتأمل تلك الحرب العشوائية على أشياء تافهة، لا تزيد من طعم الحياة إلا طعم السطحية والسخافة..

نظرت له (علا) صامتة، وقد بدأت الدموع تملأ عينيها، في إشارة غير لطيفة لقرارها..

* * *

قال (أسامة):

- كل علاقة بتعدي علينا يبقى ليها طعمها.. ليها جوها وشجنها

وربحتها وأغانيتها.. ووجعها.. اللي بيقول لك إن اللي بيعجب كثير ده
ماعرفش الحب.. يبقى غبي.. بالعكس.. ده عرف الحب بكل طعم ليه..
قلبه عرف يعني ايه يدق بمليون طريقة مختلفة.. بس للأسف.. عرف برضه
يعني ايه أنه يموت بمليون طريقة ثانية..



ساد صمت ثقيل.. ربما أطول مما ينبغي، وهو ينظر لها متأملا، في حين
تنظر هي شاردة في اللا شيء، ولا تستطيع حتى أن تنظر له..
شعر أن كل ذلك السحر، الذي كان يميزه، كان له علاقة بغموضه..
شعر أنه ما كان ينبغي له أن يحكي أي شيء..
التفتت له أخيرا، ثم قالت ودموعها تنساب رغبا عنها:
- مش عارفة ما احبكش..

نظر لها في حذر، وقال:
- (علا).. فكري كويس وما تستعجلش..
ضحكت وسط دموعها وهي تقول:

- ما تستعجلش أيه؟.. انت كل اللي أنت عملته أنك أثبت لي أن انت
الوحيد في الدنيا اللي ممكن تفهمني وتراعيني قوي.. انك واحد، رغم كل
اللي فيه، لسنة كل همة أنه يسعدني ويديني اللي أنا عاوزاه..
ثم نظرت له بضحكة وقالت:
- أنا بحبك قوي..

شعر بثقل غير طبيعي ينزاح من على صدره، وأمسك بيديها، ناظرا
لعينيه نظرة تقدير لم ينظرها لأحد في حياته، قال بصوت خافت:
- يعني انت هتستحمليني بعقدي دي؟

قالت بضحكة:

- لما أنت تستحملني بعقدي الأول..

ابتسم في هدوء، ثم قال لها بحرص:

- آخر طلب ليّ عندك بقى..

نظرت له في تعجب، فقال باسم:

- لو خلفنا بنت.. لازم نسميها (روى).. أنا طول عمري باعشق الاسم

..د

ضحكت في سعادة، وأومأت برأسها أن نعم..

وشعر (ج) للحظات أن كل شيء سيكون على ما يرام.. وأنه سيموت

بعد أربعين عاما في حضن تلك المرأة.. وأن الله قد اختار له أخيرا أن يكون

مرتاحا من كل تلك الآلام..



خاتمة

في الواقع لا توجد خاتمة.. فلكل نهاية امتداد يبدأ به كل شيء..

وصمت (أسامة) تماماً ناظراً لهم..

نظر للوجوه المنبهرة، والوجوه المستسخفة - والوجوه الراضية..

قالت إحدى الطالبات، في تعليق تكرر في كل المحاضرات السابقة:

- يعني بعد كل ده.. (أ) و(ب) و(ج) و(د) طلّعوا شخص واحد؟

أوماً (أسامة) برأسه في هدوء، ثم قال:

- بصوا على نفسكم في كل مراحل حياتكم.. وقولوا لي مين فيكم فضل

لحد دلوقتي زي ما هو؟

لم يرد أحد، فقال (أسامة):

- القرار.. (علا) قررت أنها تكمل.. قررت أنها رغم كل الصعوبات

والعقد اللي في حياة (ج) قررت تكمل..

ثم قال، بطريقة المحاضر العالم التي يعشقها:

مشاعر النبي آدم متنا.. عاملة زي صندوق مليان.. عشان يشيل

حاجات جديدة لازم يرمي القديم. والعبرة، انك تعرف تختار تحط ايه

وتشيل ايه.. عشان الصندوق ما يتكسرش، أو يتقل لدرجة انك ماتعرف

تشيله.. وتكسر كل حاجة..

قالت واحدة أخرى، في عدم تركيز لما يقوله:

- يعني في الآخر كل دول ييموتوا؟.. كل اللي حصل لهم ده.. وفي النهاية ييموت في عز فرحته وراحته؟..

صمت (أسامة) لحظات، ثم قال:

- يمكن لما نحس قوي باللي حصل.. نعرف نلحق نفسنا.. ونعرف ان العمر كله ما يستاهلش يعدي في لحظة وجع..

ثم قال بهدوء:

- دلوقتي المحاضرة خلصت.. أي ملحوظات يا ريت نسلّمها لمكتب الإدارة برة.. نمرّي معاكم كلّكم لأي واحد في أي وقت عاوز يكلمني بسألني في أي حاجة..

لم ينطقوا بكلمة، فابتسم بهدوء قائلا:

- انتهى الوقت.. يا رب أكون أفادتكم ولو بحاجة صغيرة..

لما أوراقهم جميعا، وبدءوا في الانصراف، وهم تحت تأثير الصدمة.. منهم من شكره بشدة، ومنهم من انصرف مسرعا.. حتى خلّت القاعة تماما، فقال (أسامة) وهو يللم أوراقه، ودون أن ينظر حتى:

- هاتفضل باصص لي كده كثير..

قالها لذلك الرجل، الذي بدأ يغزو الشيب رأسه، وما زال جالسا وحده في القاعة، ليقول الرجل:

- المرة دي كنت حاسك هتحن وتقولهم ان النهاية مش حقيقية..

نظر له (أسامة) تلك المرة، وقال بابتسامة:

- ماينفعش.. هترفع علي قضية لو عملتها..

* * *

رفع طالب يبدو كبيرا في السن يده، فضحك (أسامة) قائلا بهدوء:

- مش أنت والنبى.. مش كل محاضرة ليّ تعمل كده..

التفت رؤوس الطلاب لذلك الطالب المبتسم، الذي أنزل يده ثانية..

* * *

قال الرجل بصوت هادئ:

- كده أحسن.. انت عارف ان كده كل واحد فيهم هيرجع يحاول يصلح الأمور مع مراته.. والي يعترف بحبه لحبيته.. والي يخاف من الموت قوي لدرجة انه ممكن يغير كل حاجة فيه عشان يلحق نفسه..

ثم أكمل ساخرا:

- وكمان انت عارف ان النهايات المساوية بتنجح أكثر.. وبفضل في الذاكرة أطول..

أوما (أسامة) برأسه وقال:

- للأسف.. مايتعلمش غير بكده فعلا..

ضحك الرجل في وقار، ثم نهض من كرسيه، ليهبط درجات السلم في عرجة واضحة، بات لا يخاف من أن يظهرها على الإطلاق، وربّت على كتف (أسامة) قائلا:

- سلم لي على مراتك..

ابتسم (أسامة) وقال بحنان:

- وانت سلم لي على (رؤى).. وبتك (سارة)..
لم يلتفت إليه الرجل، وهو يلوح له بيده، ثم يخرج تلك العصا ويفردها..
وينصرف متكئا عليها في هدوء..
ذاهبا لتلك الزوجة التي علّمتها الحياة..
علّمتها الـ(هييتا)..
لكن بطريقتها الخاصة..

* * *

